

هل لعلم الله حدود؟





د. رشيد الجراح

الفهرس:

الجزء الأول: التسيير والتخيير.......... 5

مقدمة 5

الإرادة: الإنسان مخير بالإرادة.......... 5

عواقب هذا الظن.......... 7

المشيئة: الإنسان مقيّد بالمشيئة.......... 11

مشيئة الله: لا شيء في الكون يعارض مشيئة الله.......... 11

القول: الإنسان محكوم بالقول 20

قول الله: يحقق المراد 20

مشيئة الله تسبق إرادته.......... 29

خلاصة 31

الجزء الثاني: جدلية القلب والعقل (1).......... 34

الله يعلم وانتم لا تعلمون.......... 35

الله يعلم كل شيء 37

ما الذي سيعلمه الله؟.......... 40

الله يعلم الغيب 42

الله يعلم السر والجهر.......... 44

الكتمان 46

الإخفاء.......... 47

ما الفرق بين الكتمان والإخفاء؟ 48

السر.......... 49

ما المقصود بالعلم؟.......... 52

ما الذي لا يعلمه الله؟ 55

الجزء الثالث: جدلية القلب والعقل(2) 58

كيفية علم الله لما في القلب 58

تفنيد الفكر السائد 67

تبعات هذا الافتراء 72

الجزء الرابع: هل لعلم الله حدود؟ جدلية القلب والعقل (3).......... 76

الوسوسة 81

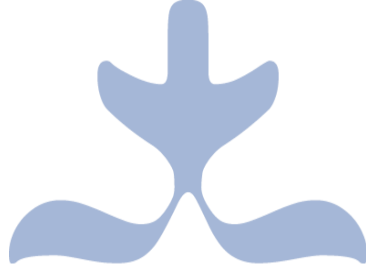
مقارنة: أبو لهب وفرعون 86

ما الفرق بين أن يعلم الله ما في قلب الإنسان وأن يطلع الله على قلب الإنسان؟.......... 89

الجزء الخامس: جدلية القلب والعقل(4).......... 99

الفهرس

باب العلم 100
هل فهم داوود ما فهمه ولده سليمان؟... 102
باب المعرفة 107
هل الله يعرف؟ 112



هل لعلم الله حدود؟

الجزء الأول

التسيير والتخيير



الجزء الأول: التسيير والتخيير

مقدمة

نشير للقارئ الكريم أنّنا لا نكتم ما نظن أنه علماً علمنا الله إياه مهما بلغ درجة غرابته في نظر الآخرين، لذا ما يهمنا هو انتشار العلم بين الناس ليكون سببا في تحريك الجمود الفكري الذي أصاب الأمة منذ قرونا من الزمن، سائلين الله أن يكون من باب العلم الذي ينتفع به، ونسأله تعالى أن يكون ذلك خالصاً لوجهه فلا نريد منكم جزاء ولا شكورا. فمن أحب أنْ يشارك الكاتب بأفكار تساعد في تطوير مقالتنا هذه (التي نطن أن فيها من الافتراءات غير المسبوقة) فله من الله الأجر ومنا الشكر والثناء، ومن أراد أنْ ينسب هذه الأفكار له، فهو لن ينال إلا عقوبة السارق (فنحن نؤمن أنّ الله يعلم من دفع ثمن الأضحية)، أما نحن فلا نلاحقه قضائياً ولا أكاديمياً، وأما من ظن أنّ كلامنا لا يعدو أكثر من هراء فهو بلا شك لم يجاوز الحقيقة وليرسل هذا الملف بأكمله إلى recycle bin على جهازه. وأما من أراد أن لا يتزعزع إيمانه بعقائد آباءه وأجداده فإننا ننصحه أن لا يتابع القراءة بعد هذا السطر.

إننا نزعم الفهم أنّ القرآن الكريم قد أثبت أنّ لله إرادة ولله مشيئة ولله قول، حيث نقدّم الافتراء الخطير جداً (الذي هو بلا شك من عند أنفسنا) التالي: الإنسان مخير بالإرادة مقيد بالمشيئة محكوم بالقول، ونحن نزعم الظن بأن فهم هذا الإدعاء قد يحل – في رأينا- إشكالية التسيير والتخيير، ولنبدأ بها الواحدة تلو الأخرى.

الإرادة: الإنسان مخير بالإرادة

السؤال: هل يسير الكون كلّه بإرادة الله؟

جواب: نحن نفتري الظن بأن الكون لا يسير كله بإرادة الله

فالسؤال الذي يتبادر للذهن ولربما نظن أنّه لم يفهم كما يجب هو: هل الكون مسيّر بإرادة الله؟ فإذا كان الكون فعلاً مسيراً بإرادة الله فهذا يعني أولاً أنّ الإنسان كجزء من هذا الكون مسيّر هو كذلك بإرادة خالقه وليس له من الأمر شيئاً، والأهم من ذلك أنّ الكون كله سيكون خيراً ونعيماً خالصاً، والأرض ستكون جنة الخلد، وذلك لأنّ إرادة الله على نحو:

- ﴿... يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ... ١٨٥﴾ [البقرة: 185]
- ﴿... مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾ [المائدة: 6]

ولكن هل فعلاً الحياة كلها يسر؟ فكيف نفهم أنّ الله يريد بنا اليسر ونحن نواجه ما نواجه (بما أوقعنا أنفسنا به من) العسر؟ ولتعزيز الفكرة نفسها فإننا ندعو القارئ الكريم إلى تدبر الآيات القرآنية التالية:

- ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٨﴾ [آل عمران: 108]
- ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ۝٣١﴾ [غافر: 31]

فإذا ظننا أنّ الكون مسيّر بإرادة الله، وهذه الآيات الكريمات تشير جميعها أنّ إرادة الله تقضى انتفاء الظلم للعالمين، فـ أليس ما يحصل من ظلم للإنسان (حتى وإن كانوا هم سبب فيه) يتنافي ويتعارض مع إرادة الله؟

- ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٧٠﴾ [التوبة: 70]

إنّ تساؤلنا هو على النحو التالي: الله يقول "وَمَا اللّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ"، فلم إذاً يقع الظلم على العالمين؟ فلو كانت إرادة الله نافذة على الدوام لما وجدنا (نحن نفتري الظن) الظلم واقع إطلاقاً لأنّ الظلم يتنافى مع إرادة الله، أليس كذلك؟ لذا فإننّا نزعم الظن أنّ إرادة الله ليست هي المسيّرة لكل ما في الكون، فإرادة غيره قد تكون نافذة وإنْ هي تعارضت مع إرادته جل وعلا، كلام خطير، أليس كذلك؟

ولكن أين الدليل على ذلك؟

جواب: لنقرأ الآية القرآنية التالية:

- ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾ [المائدة: 91]

فإذا ظننا أنّ الكون وما فيه مسير بإرادة الله فكيف سيستطيع الشيطان أنْ ينفّذ إرادته التي تتعارض كلياً مع إرادة الله؟ والملفت للنظر أنّ إرادة الشيطان نافذة أكثر بدليل الكثرة المتبعة له:

- ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يوسف: 103]
- ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠٠﴾ [المائدة: 100]

بينما القلة القليلة هي التي نفذت إرادة الله لها بالخير:

- ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ: 13]

عواقب هذا الظن

بناء على منطقنا المفترى هذا، فإن لب القول عندنا هو أنّ الله لا يتدخل بإرادة الإنسان، فإرادة الإنسان مستقلة تماماً عن إرادة خالقه، وهذا ما كان بالضبط في حال آدم وزوجه حواء، فلقد كانت إرادة الله لهم الخير كل الخير وهو عدم الأكل من الشجرة، ولكن كانت إرادة الشيطان لهم الشر كل الشر وهو أنْ تبدو لهما سوءاتهما، ولمّا تضاربت إرادة الله مع إرادة الشيطان كان اختيار آدم بإرادته طريق الشيطان الذي أوقعه في المعصية:

الضوابط	الإرادة	إرادة الله	إرادة الشيطان	إرادة آدم	النتيجة
الأكل من الشجرة		لا	نعم	نعم	فبدت لهما سوءاتهما

إنّ هذا يقودنا إلى الافتراء الخطير التالي: إنّ ما يجول بخاطرك من أفكار ونوايا ليس لأحد (حتى لخالقك) دخل بها، وهذا التصور ربما يساعدنا في فهم الآيات القرآنية التالية:

- ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝١٤١ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٢﴾ [آل عمران: 141-142]
- ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٦﴾ [التوبة: 16]
- ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٢٩﴾ [الجاثية: 29]
- ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٤٠﴾ [آل عمران: 140]
- ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ۝٢٥﴾ [الحديد:25]
- ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ۝١١﴾ [العنكبوت: 11]

والسؤال المشروع يكون إذاً على نحو: إذا كان الله يتدخل بإرادتنا فلم يوقعنا في تلك الفتن أصلاً؟ وإذا كنا مسيّرين بإرادته بكل شيء فما الجديد الذي سيعلمه وما الجديد الذي سيستنسخه؟ لقد تضاربت الآراء بتأويل مثل هذه الآيات، فقد يقول قائل لِمَ يختبرنا الله ويبلونا ما دام أنه يعلم كل شيء؟ فهل هي إذاً مسرحية مكتوبة ومقدرة من قبل أنْ تُمثّل على خشبة المسرح؟ نقول كلا، إنها ليست كذلك للسبب البسيط وهو أنّ الإنسان خلق مستقل الإرادة، وإرادة الله فيه غير نافذة إذا تعارضت مع إرادته:

- ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [النساء: 27-28]
- ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧﴾ [الأنفال: 67]

وهذه الآيات الكريمات وغيرها تثبت – برأينا- إمكانية تضارب إرادة الله مع إرادة غيرة (تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ)، وأن إرادة الله قد لا تكون هي النافذة دائماً، فإرادة الله لم تنفذ في آدم بينما نفذت إرادة الشيطان فيه، وإرادة الله لم تنفذ في الغالبية الساحقة من خلقه بل نفذت بهم إرادة الشيطان وأنفسهم.

وهذا يدعونا أنْ نتذكر كذلك أنّ وجود الإرادة لا يعني حتمية وقوع الأمر، فالإرادة لا تعني أكثر من "الميل الداخلي نحو أمر ما، وليس حتمية وقوعه، فحتى لو كان للإنسان إرادته الخاصة في حدوث شيء ما، فقد لا يحدث ذلك الشيء، والسبب كما أسلفنا أن إرادة الله نفسه قد لا تتحقق، فالإرادة بحد ذاتها غير كافية لتحقيق الأمر، ولهذا نفهم أنّ الله إذا أراد شيئاً قد لا يكون، وسنرى لاحقاً كيف يحقق الله إرادته، أي كيف يفعل الله ما يريد.

وبهذا نفهم التضارب الظاهر في الآيتين التاليتين:

- ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [القصص: 83]
- ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ [آل عمران: 139]

فالله يقضي أنّ الدار الآخرة لا تكون للذين يريدون أنْ يعلوا في الأرض وفي الوقت ذاته يخبر المؤمنين أنهم هم الأعلون، فكيف يمكن تفسير ذلك؟ فبعيداً عن التأويلات المجازية، فإننا نزعم الظن بأنّ افتراضنا السابق ربما يحل مثل هذه الإشكالية بكل يسر وسهولة، فالله يقول أنّ الدار الآخرة تكون للذين لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا، وهذا يعني أنّ ما هو مطلوب هو فقط الإرادة، فإذا لم تكن إرادتك العلو فإنّ الدار الآخرة هي لك حتى وإن حصل لك العلو في الدنيا، فالمطلوب من المؤمن ليس "عدم العلو في الأرض" وإنما أنْ لا تكون إرادته كذلك (أي العلو في الأرض). وبالتالي لا تتنافر إرادتك مع إرادة خالقك كما في قوله تعالى:

- ﴿... تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧﴾ [الأنفال: 67]

وكذلك نفهم التضارب الظاهر بين قوله تعالى:

- ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ٢٠﴾ [الشورى: 20]

وقوله تعالى:

- ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧﴾ [القصص: 77]

إن مراد القول هو: لا ضير أن تعمل لدنياك ولكن لا تجعلها إرادتك ومقصدك فتهلكك.

فخلاصة القول هو الافتراء بأنّ الإنسان مسيّر بإرادته وليس بإرادة الله، صحيح أنّ إرادة الله هي الخير له دائماً، ولكن إنْ آثر هو غير ذلك فالله لا يمنعه، وهذا (كما ذكرنا سابقاً) هو العدل الإلهي، فلو لم تكن إرادة الإنسان مستقلة عن إرادة خالقه لأصبح معنى الحياة عبثاً لأنّ الجميع سيكونون مسيّرين لا مخيّرين وبذلك ينتفي التميز بينهم، ولكن لمّا كان كل إنسان – في ظننا- مستقل الإرادة أصبح من السهل علينا فهم قول الله تعالى:

- ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٣٧﴾ [الأنفال: 37]
- ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٧٩﴾ [آل عمران: 179]

وبذلك لا تكون الحياة مسرحية كل فصولها معدّة مسبقاً، وسنرى لاحقاً أنّ ما هو مطلوب من الإنسان (أي إنسان) ليس إلاّ إصلاح إرادته حتى يتحصل له الإيمان، ولا يكون في الطرف الآخر، طرف الهوى والشيطان، وإنْ صح هذا القول فإننا ندعي كذلك أنّ الأمر لا يتطلب الجهد الكبير، إنها فقط مقارعة إرادة الشر التي في النفس وإرادة الشيطان المسعرة لها، فلا يجوز لأي إنسان أنْ يتعذّر عن اللحاق بركب المؤمنين بسبب صعوبة العمل، فالمطلوب هو فقط أنْ لا تتحصل لك الإرادة بالشر، وإنْ هي حصلت أنْ تكبح جماحها، وليس أدل على ذلك من قوله تعالى:

- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾ [النساء: 76]

فنبي الله يوسف لم يترك بيت العزيز ولم يهرب من الفتنة وإنما جل ما فعل هو "صفاء الإرادة" فتوجه إلى ربه قائلاً:

- ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ [يوسف: 33]

فكانت النتيجة:

- ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٤﴾ [يوسف: 34]

وإنما من أراد المعصية وأصرّ عليه، فما كان الله ليمنعه عنها:

- ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام:110]

ولهذا نرى أنّ من أكره على المعصية غير محاسب عليها، أما من اتخذ الكفر عن إرادته الخاصة فهو المحاسب عليها المتحمل لتبعاتها:

- ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل: 106]

وقد يقول قائل: إذا كانت إرادة الله غير نافذة في كل أمر فكيف يمكن تفسير قوله تعالى:

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾ [الحج:14]

فنقول نعم "أنّ الله يفعل ما يريد"، ولكن لنتذكر أنّ إرادة الله هي الخير دائماً، فما يريده الله لا يمكن أنْ يكون به السوء للناس وحتى للكافر والمكابر والمجاهر بالمعصية، أما ما نود تأكيده هو إنْ أراد الإنسان نفسه أنْ تخالف إرادته الذاتية إرادة الله له بالخير فالله لن يمنعه ذلك، ولو منع الله الناس تحقيق إرادتهم لأنها تتعارض مع إرادته لما استطاع الإنسان الوقوع في المعصية إطلاقاً ولأصبح الإنسان بذلك كبعض مخلوقات الله الأخرى المسيرة طوعاً أو كرهاً:

- ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت:11]

ولهذا نرى كذلك لِمَ لا يقبل الله الأعمال إنْ لم تكن صادرة عن "إرادة" خالصة لله، فالمؤمن قد ينفق من أمواله على الفقراء وكذلك قد يفعل الكافر، ولربما نرى أنّ بعض الكافرين يفعلون من الأعمال الخيرية أضعاف أضعاف ما قد يفعله المؤمنون، ولكننا (حسب عقيدتنا) نؤمن أنّ ذلك لن يكون محسوباً لصالح الكافر في ميزان الله:

- ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: 23]

إنّ ما هو مطلوب من المؤمن هو أنْ تتطابق إرادته مع إرادة الله له بالخير، أما إنْ هو آثر إرادته الخاصة فله ذلك وهو من سيتحمل تبعاتها وخصوصاً إنْ هو أصرّ عليها ولم يعدل عنها بالتوبة قبل فوات الأوان، وهذا ما نفهمه من معنى التسيير والتخيير، فلب القول أنّ الإنسان مخير بإرادته التي قد لا تتطابق مع إرادة خالقه.

وهنا يبرز تساؤل مثير آخر وهو: كيف يسير الكون إذاً إن لم يكن مسير كله بإرادة الله؟

رأينا: فنقول أنه كما لله إرادة فله أيضاً مشيئة. ولكن يجب أنْ فهم أولا ما معنى مشيئة الله وكيف تختلف عن مشيئة غيره، وأخيراً علينا أن نفهم كيف يسير الكون وكيف لا يتنافى ذلك مع معنى التسيير والتخيير.

نتيجة مفتراة: الإنسان مخير بإرادة الله، فإرادة الله غير ملزمة له، لذا نقول أن الإنسان مخير بالإرادة.

المشيئة: الإنسان مقيّد بالمشيئة

مشيئة الله: لا شيء في الكون يعارض مشيئة الله

لقد توصلنا إلى الفهم السابق أنّ لله إرادة وللإنسان إرادة وقد تتعارض إرادة الإنسان مع إرادة خالقة فتكون النتيجة حينئذ الوقوع بالمعصية، ولكن إنْ آثر الإنسان أنْ لا تتعارض إرادته مع إرادة خالقه وسلك طريق النجاة فله ذلك، فالإنسان من هذا المنطلق (أي من حيث الإرادة) مخيّر وليس مسيّر. ولكن عندما نأتي للحديث عن مشيئة الله فيجب أنْ نفهم قبل كل شيء أنّ هذه ليست اختلاف مسميات لشيء واحد، فمشيئة الله تختلف عن إرادة الله، ولكن كيف؟

رأينا: إنّ مشيئة الله (على غير إرادة الله) لا يمكن أنْ تتعارض معها مشيئة غيره، فالإنسان له مشيئته ولكن يجب أنْ ندرك استحالة أنْ تتعارض مشيئة الإنسان مع مشيئة خالقه مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ٣٠﴾ [الإنسان: 30]
- ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢٩﴾ [التكوير: 29]

لاحظ عزيزي القارئ عدم وجود آية في الإرادة مشابهة لآية المشيئة هذه، فلا يوجد آية مثل (وما تريدون إلا أن يريد الله رب العالمين) الله، فإرادة الإنسان، على عكس مشيئته- غير مرتبطة بإرادة خالقه.

والحالة كذلك يكون الإنسان في هذا الجانب مسيّراً غير مخيّر وليس له من الأمر شيئاً، وهنا ينبري البعض لإثارة التساؤل نفسه: ما دام أنّ مشيئة الإنسان مرتبطة بمشيئة خالقة، فكيف إذاً يمكن للإنسان أنْ يقع في معصية خالقه؟ فلقد ذكرنا سابقاً أنّ الإنسان يقع في المعصية لأنّ إرادته قد تتعارض مع إرادة خالقه، فتقع في نفسه المعصية التي لا يرضاها له ربه، ولكن المسألة هنا مختلفة، فكيف يقع الإنسان في المعصية ما دامت مشيئة ذلك الإنسان مرتبطة بمشيئة ربه الذي لا يرضى بالمعصية؟

⇐ أولاً، لم تقضي مشيئة الله أنْ لا يقع الإنسان في المعصية، بل ترك مشيئة الناس نافذة حتى وإنْ كانت في الكفر:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٤٠﴾ [فصلت: 40]
- ﴿فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ١٥﴾ [الزمر: 15]

⇐ ثانياً، لم تكن مشيئة الله تقضي الإلزام بخيار واحد، بل كان هناك الخيار الآخر قائماً:

- ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ١٠٧﴾ [الأنعام: 107]

- ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٤٩﴾ [الأنعام: 149]
- ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨﴾ [هود: 118]

فهل قضت مشيئة الله بأنْ لا يشركوا؟ وهل قضت مشيئة الله بهداية الناس جميعاً؟ وهل قضت مشيئة الله بأنْ يكون الناس كلهم أمة واحدة؟ الجواب هو كلا، فلقد أشرك أغلبية الناس، ولم يهتد الجميع، وتفرق الناس شعوباً وقبائل. وهذه الأمور كلها لا ترضي الإله بكل تأكيد، أليس كذلك؟

وبالمقابل ألم تنفذ مشيئة الله في الخير؟

- ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦﴾ [يونس: 16]

ألم تنفذ إذاً مشيئة الله بأنْ أرسل رسوله ليتلوا علينا آياته؟ فلب القول إذاً هو أنّ مشيئة الله لم تكنْ لتقضي دائماً بهداية الناس أو أنْ تقضي دائماً بضلالهم، لم تكن تقضي بالخير على الإطلاق، فهي إذاً مشيئة الناس أنفسهم، إنْ هي خير فخير وإنْ هي شر فشر، فارتباط مشيئة الناس بمشيئة الله لا تعني أنّها موجهة بطريقة واحدة، فالإنسان بالرغم من ارتباط مشيئته بمشيئة خالقه لا يكون مسيراً، بل هو لا زال مخيراً، فلو قضت مشيئة الله بخيار أوحد وارتبطت مشيئة الإنسان بمشيئة خالقه لكان الإنسان عندها مسيّراً لا يملك من أمره شيئاً، ولكن وجود الخيار بالخير والشر واستطاعت الإنسان (لأن الفرصة متاحة له) الوقوع في كليهما يعني أنّه غير مجبر، وأما قول الكافرين في الآية التالية:

- ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨﴾ [الأنعام: 148]

فهو من باب الكذب الواضح لأنّه مبني - كما توضح الآية نفسها- على الظن، وذلك لأن الاختيار قائم بين نقيضين لكل منهما نفس الفرصة، وبكلمات أخرى فأنت عندما ترمي حجر النرد ألا يكون لكل جهة نفس الفرصة في الظهور؟ وألا تكون فرصة الصورة كفرصة الكتابة عندما تقذف قطعة نقد؟ ألا يكون لكل طرف في قطعة النقد نفس الفرصة في الظهور؟ فكيف بك تعود بعد أنْ يتم قذف القطعة ومعرفة النتيجة أنْ تقول هي مقدّرة مسبقاً أنْ تكون هذه أو تلك؟ فهل قذفتها ولديك العلم الذي يؤهلك لمعرفة النتيجة في كل مرة قبل أنْ تقذفها؟ إنْ كان كذلك فحق لك أنْ تدعي أنّها مقدّرة مسبقاً، ولكن إنْ لم تكن تملك العلم بها وكان جلّ ما تستطيع هو فقط الظن بأنْ تكون إما هذا أو ذاك، فأنت إذاً تملك فرصة متساوية لكل احتمال، وبلغة رياضية فأنت لديك فرصة 50% أنْ تكون من أصحاب اليمين، كما تملك في الوقت ذاته فرصة 50% أنْ تكون من أصحاب الشمال، وما هي إلاّ مشيئتك أنت أنْ تقرر إلى أي طرف تحب أنْ تنتمي، فترجع خطوة إلى الوراء (إلى إرادتك) لترى إلى أي الفريقين هي أقرب، ولتتذكر الآن أنّ الله –كما ذكرنا سابقاً-

قضى بأنْ تكون إرادتك مستقلة عن إرادة غيرك حتى وإنْ كان خالقك، فتكون بذلك مخيّرا محاسباً على تبعات اختيارك.

وهذا الخيار موجود في كل آية يقتبسها المجادل ليتحدى أنّ الأمور محسومة مسبقاً، ولنقرأ بعض هذه الآيات ونرى الدقة والروعة في التصوير القرآني لهذا التخيير:

- ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النحل: 93]

فلقد اقتبست مثل هذه الآية الكريمة من الكثيرين لتدليل على عبثية إهدار الجهد في الهداية أو الضلال لأنّ ذلك مقروناً بمشيئة الله، فكما تشير الآية الكريمة فإنْ شاء الله لك الهداية اهتديت، وإنْ لم يشاء لك الهداية ضللت، فنقول نعم هو كذلك ولكننا نود أنْ نجلب انتباه القارئ إلى أنّه غفل عن قراءة أخرى للآية القرآنية، فنحن ندعي أنّ هذه الآية يجب أنْ تقرأ على وجهين لتعطي معنيين في ظاهرهما متناقضين ولكن في جوهرهما متطابقين.

فغالباً ما قرءت هذه الآية وأمثالها على أنّ ضمير الفاعل (أي الضمير المستتر المقدر للفعلين يشاء ويهدي) عائد على الذات الإلهية، فيكون المعنى بذلك "يشاء الله ويهدي الله"، ولكن ألا توجد قراءة أخرى؟ فما قولك بأنّ ضمير الفاعل المستتر للفعلين "يشاء ويهدي" يعود على الشخص نفسه، فيكون المعنى أنَ الله يضل من يشاء الضلالة ويهدي من يشاء الهداية، وقبل التسرع في رفض هذه القراءة فإننا ندعو القارئ الكريم أنْ يأخذ ما يكفي من الوقت لتدبر القراءتين، فلتقرأ الآية بالوصل بعد الفعل "يضل" والفعل "يهدي" عل نحو:

وَلكِن يُضِلُّ مَن يَشَاء   وَيَهْدِي مَن يَشَاء

ثم تعاود القراءة بالوقف بعد كل فعل على نحو:

وَلكِن يُضِلُّ   مَن يَشَاء   وَيَهْدِي   مَن يَشَاء

وإنْ لم يكن الأمر كذلك، وفهِمَ الناس أنّ الله هو نفسه يضل من يشاء ويهدي من يشاء ويغفر لمن يشاء على إطلاقه، فكيف يمكن تفسير الآيات التالية:

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء:48]
- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: 116]

فتساؤلنا هو على النحو التالي: إذا كان الله يغفر لمن يشاء ويهدي من يشاء ويعذب من يشاء على إطلاقها، فلِمَ قرر على نفسه أنْ لا يغفر لمن لا يشرك به؟ أي لم قيّد مشيئته بأنْ لا يغفر لمن يشرك به؟ إنّنا نزعم الظن أنّ الأمر ليس كذلك، والآية القرآنية تقرأ على نحو أنْ الله لا يغفر لمن يشرك به كقانون إلهي،

وفي الوقت ذاته يقضي بأنّ يغفر ليس لمن يشاء هو أنْ يغفر له وإنما للعبد الذي شاء هو نفسه أنْ يهديه الله، وبهذا يكون المعنى أن الله لن يغفر لمن أشرك به سواء شاء العبد ذلك أم لم يشاء، ولكن الله سيهدي العبد الذي اقترف من الذنوب ما هو أصغر من الشرك إنْ طلب العبد نفسه تلك المغفرة، ولنتذكر أمراً غاية في الأهمية يثبت صحة ما ندعي وهو: هل يتقبل الفكر الإسلامي فكرة أنْ الله يغفر لمن لا يطلب المغفرة بنفسه؟ وإذا كان الجواب بالنفي قطعاً، فكيف إذاً يغفر الله لمن يشاء هو، خصوصاً إذا كان العبد غير طالب لتلك المغفرة؟

⇐ ثالثاً، إذا كان المعنى ليس كذلك فكيف يمكن فهم مثل الآيات التالية؟

- ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ [البقرة: 256]

وبكلمات أخرى كيف إذاً يُنسَبُ الإيمان بالله والكفر بالطاغوت (أو عكسهما) للشخص نفسه؟

⇐ رابعاً، لابد من فهم معنى المشيئة كما ترد في السياق القرآني، ونحن نفتري الظن بأنّ المشيئة تعني ما قدّر الله من احتمالات الإدراك والفعل بمجملها، أي ما يمكن أنْ يحصل بغض النظر عن علم الإنسان أو جهله، فلو افترضنا أنّ الإنسان يريد القيام بعمل ما، فما هي احتمالات وقوع الفعل وكيفيته؟ إن الجواب هو بكل تأكيد احتمالات كثيرة جداً لا يعلمها إلا الله، وكون الإنسان قد اختار واحدة منها لا يعني أنّ الله قد أختار ما شاء الله نفسه له على وجه الخصوص، بل تعني أنّ ما اختاره الإنسان لم يخرج عن نطاق الاحتمالات الكثيرة التي قدّرها الله، فجل القول أنّ الله قدّم مشيئته على شكل اختيارات كثيرة، وجعل ارتباط مشيئة الإنسان بمشيئة الله هي – في ظننا- من نوع اختيار الواحد من المتعدد على نحو:

مشيئة الله	ح1	ح2	ح3	ح4	ح5	ح6	... ح ن
مشيئة الإنسان				ح س			

وليست اختيار واحد من واحد كما في الشكل:

مشيئة الله	ح س
مشيئة الإنسان	ح س

وهذا النوع الأخير من الاختيار (اختيار الواحد من واحد) ورد في القرآن الكريم ليس عند الحديث عن المشيئة وإنما عند الحديث عن الإذن الإلهي، ونحن ندعو القارئ الكريم إلى التفكر بالفرق بيت قوله تعالى "إِلاَّ بِإِذْنِه" وقوله "إِلاَّ بِمَا شَاء"، فنحن نظن أنّ ذلك ليس تبديلا لمفردات تؤدي نفس الغرض، بل العكس تماما، إنها معاني مختلفة.

قال تعالى:

- ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ [البقرة: 255]

فالشفاعة لا تتم إلاّ بإذن الله (لأنها تعني إما شفاعة أو لا شفاعة):

... مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ...

ولكنّ الإحاطة بشي من علم الله –بالمقابل- لا تتم إلا بمشيئته:

... وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء...

والسبب في ذلك هو – برأينا- يعود إلى أنّ الاحتمالات كثيرة في هذه الحالة، فعلم الله لا يحتمل الثنائية (binary) كما الحال في الشفاعة، وبتقصي الآيات الكريمات التي يرد فيها الإذن الإلهي نظن أنّها جميعاً تحتمل الثنائية (حصول الشيء أو عدمه) وبالتالي فهي تعني الإلزام بواحدة من خيارين لا ثالث لهما، أما آيات المشيئة فتقتضي التعددية (plurality) ولذا فهي تستلزم الاختيار، قال تعالى:

- ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ [يونس: 99]
- ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٠﴾ [يونس: 100]
- ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ١٠٥﴾ [هود: 105]

وهنا يبرز التساؤل التالي: متى تنفذ المشيئة؟ أي يجب أنْ نفهم ما هي المشيئة النافذة (متى تنفذ المشيئة ومتى لا تنفذ).

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن القرآن الكريم يثبت لنا بأنّ مشيئة الله قد لا تنفذ للمؤمن (كما يطلبها) فكيف بها أنْ تنفذ بالمغفرة لمن لا يطلبها! وبكلمات أخرى، فإننا نزعم القول بأنه حتى لو ربط العبد المؤمن أمره بمشيئة الله فقد لا تنفذ له تلك المشيئة. وإنْ صح هذا الإدعاء بالنسبة بالمؤمن فالأمر بالنسبة لغير المؤمن ليس أفضل حالاً، لأنه من باب أولى أنْ تنفذ مشيئة الله للعبد المؤمن كما يطلبها على أن تنفذ لغير المؤمن. وقد يرد البعض على الفور بالقول وهل فعلاً لم تنفذ مشيئة الله للعبد المؤمن إنْ هو طلبها؟

جواب: نقول نعم، لم تنفذ مشيئة الله حتى لمن طلبها من عباده المؤمنين، فالقرآن الكريم يورد الأمثلة على نفاذ مشيئته للعبد المؤمن إنْ هو طلبها ويورد كذلك أمثلة على عدم نفاذ تلك المشيئة للعبد المؤمن حتى وإنْ طلبها، ولنقرأ الموقفين التاليين:

1. موقف خاص بموسى

- ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ٦٩﴾ [الكهف: 69]

2. موقف خاص بإسماعيل

- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصافات: 102]

فها هو نبي الله موسى عليه السلام يطلب صحبة ذلك الرجل ويؤكد له أنّه "بمشيئة الله" سيصبر على صحبته، وذاك نبي الله إسماعيل يطلب منه والده الامتثال لأمر الله بالذبح، فيكون رده على طلب أبيه أنّه "بمشيئة الله" سيصبر على ذلك، والسؤال البسيط هو: ماذا كانت مشيئة الله في الحالتين؟ فهل صبر موسى على صحبة ذلك الرجل الصالح؟ الجواب هو النفي بكل تأكيد:

- ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٢﴾ [الكهف: 72]
- ﴿۞ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٥﴾ [الكهف: 75]
- ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ٧٨﴾ [الكهف: 78]

وبالمقابل، ألم يصبر إسماعيل على أمر الله؟

- ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥﴾ [الصافات: 103-105]

السؤال: لو كانت مشيئة الله نافذة على إطلاقها، فلِمَ لَمْ يصبر موسى على صحبة ذلك الرجل بالرغم أنّه ربط مشيئته بمشيئة الله؟ وبنفس المنطق نسأل: لم صبر إسماعيل على أمر الله عندما ربط مشيئته بمشيئة الله؟

رأينا: إنّ الافتراض أنّ ذلك أمر خاص بالله يعني بالضرورة العشوائية في أحكام الله (تنزه وتعالى عن ذلك)، فها هي مشيئته تنفذ لموسى بأنْ لا يصبر بينما تنفذ مشيئة الله لإسماعيل فيصبر على الرغم أنّ الطلب واحد والطالب في كل حالة نبي من أنبياءه.

افتراء من عند أنفسنا: إنّنا نعتقد أنّ الأمر ليس تلك الشاكلة التي صوّرها لنا علماؤنا الأجلاء، فالله هو الحكم العدل وهذا يعني بمنطقنا المفترى أنّ صبر موسى وصبر إسماعيل لم يكن مصدره من الله (لأنه لو كان الأمر متعلق بمشيئة الله لنفذت لموسى كما نفذت لإسماعيل). ولكننا نظن إنّ الأمر نابع من موسى نفسه ومن إسماعيل نفسه، فلَمْ يصبر موسى على صحبة الرجل ليس بسبب مشيئة الله وصبر إسماعيل ليس بسبب مشيئة الله (فمشيئة الله نافذة بالتساوي لكل منهما) وإنّما لأمر آخر يخص كل منهم بذاته، وإلاّ كيف يمكن فهم أنّ نبي الله موسى لم يصبر على صحبة الرجل بالرغم من ربطه ذلك بمشيئة الله بينما نفذت مشيئة الله لقومه عندما طلب منهم ذبح البقرة بالرغم من ما وقع في أنفسهم من الأمر في البداية:

- ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ٧٠﴾ [البقرة: 70]

فجل القول هو أنّ كلاً من موسى وإسماعيل ربطوا مشيئتهم بمشيئة خالقهم ولم تنفذ المشيئة لموسى ونفذت لإسماعيل لأمر لا يتعلق بالمشيئة، وإلاّ لكانت مشيئة الله نافذة بنفس الطريقة في كلا الحالتين، فكلاهما نبي مكرم، وخصوصاً إذا علمنا –كما ذكرنا سابقاً- أنّ الله لم يرد طلباً لموسى قط. إنّنا ندعي أنّ ربط موسى وإسماعيل مشيئتهم بمشيئة ربهم ليس لغرض تحقيق المشيئة أو عدمها وإنما من باب قوله تعالى:

- ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ۝٢٤﴾ [الكهف: 23-24]

فحتى في الأمر غير الصالح يربط الإنسان المؤمن مشيئته بمشيئة ربه، مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ۝٨٩﴾ [الأعراف: 89]

نقول – حسب فهمنا لما في هذه الآية الكريمة- أنّه حتى عدول الإنسان عن الإيمان إلى الكفر لا يتم إلا بمشيئة الله، وهذا بالضرورة يعني أنّ مشيئة الله ليس لها دخل بتمييز جهة على حساب جهة، فمشيئة الله بالإيمان موجودة ومشيئة الله للناس بالكفر موجودة كذلك، فالله قد يشاء لك الإيمان كما قد يشاء لك الكفر، وفي هذا فرق كبير بين مشيئة الله وإرادة الله، ففي حين أن الله قد يشاء لك الكفر لكنه بكل تأكيد لا يريده لك. فكيف إذن تختلف مشيئة الله عن إرادة الله؟

افتراء من عند أنفسنا: إننا نعتقد أنّ مشيئة الله إنما تعني تدبير الأمور عن علم، ففعل أي شي (سواءً كان من الخير أو الشر) لا يتم إلا بمشيئة الله (أي بعلم الله فيه)، وتدبر معي – عزيزي القارئ- تكملة الآية نفسها "وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا":

وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ

فتلك هي – في ظننا- مشيئة الله، إنها "العلم بكل الاحتمالات القائمة"، ويتمثل عجز الإنسان في عدم قدرته الخروج عن حدود تلك الاحتمالات (وليس باختيار واحدة من هذه الاحتمالات)، فالإنسان لا محالة محكوم بتلك الاحتمالات فلا يستطيع الخروج عنها لذا عليه أن يختار واحدة منها، فهو لا يستطيع الإتيان باحتمال لم يحط الله به علماً من قبل، قال عز وجل:

- ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾ [البقرة: 255]

وبهذا – في رأينا- يتحقق معنى قوله تعالى "**لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ**"، وذلك لأنّ الإنسان لا يستطيع أنْ يغافل ربه فيحدث ما لم يكن يعلم، وإنْ صحّ هذا الاستقراء تصبح المشيئة كما تصورها هذه الآيات جميعاً الإحاطة بالعلم كله، أما ما يخص تحقيق الأمر أو عدمه فهذا يتعلق بالشخص نفسه، فكما ذكرنا سابقاً تحققت المشيئة في حالة إسماعيل وقوم موسى ولم تتحقق في حالة موسى نفسه لأمر يخص موسى وإسماعيل وقوم موسى وليس بسبب مشيئة الله.

وهنا يتساءل القارئ عن سبب عدم تنفيذ الله لموسى مشيئته مثلاً بالرغم أنّه ربطها بمشيئة الله؟

رأينا: نحن نجزم الظن أنّه لو نفذت مشيئة الله لموسى بالصبر لناقض القرآن الكريم بعضه بعضا، وسنحاول في الحال تفسير كيف أنّ عدم نفاذ مشيئة الله لموسى كما أرادها موسى نفسه هي الأمر الحق. ولكن كيف ذلك؟

جواب: ربما يعرف الجميع قصة موسى مع ذاك الرجل الصالح، فلقد طلب موسى صحبة ذلك الرجل لأنّ ذلك الرجل كان يملك علما من لدن الله، فقال تعالى:

- ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ٦٥﴾ [الكهف: 65]

وربما يعرف الجميع أنّ جزءا من علم ذلك الرجل تمثل في القدرة على المعرفة المستقبلية، فلقد أعلمهم بخبر السفينة، وأعلمهم كذلك بخبر الغلام والجدار، وعن السبب الذي جعله يخرق السفينة ويقتل الغلام ويقيم الجدار، ونحن نؤمن ونصدق أنّ ذلك كان عن علم (إي العلم الذي علمه إياه ربه)، أليس كذلك؟ الجواب نعم بكل تأكيد، فذاك الرجل كان يخبر عن علم، وقد يقول قائل وما دخل ذلك بعدم نفاذ مشيئة الله بطلب موسى الصبر على صحبة ذاك الرجل الصالح؟ نقول أنّ موسى قَدِمَ طالباً صحبة ذلك الرجل ولكن لا ننسى أنّ ردة الفعل الأولى لذاك الرجل الصالح على طلب موسى:

- ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧﴾ [الكهف: 67]

فهل سيستطيع موسى إذاً الصبر على صحبة ذلك الرجل؟ ألا يملك ذلك الرجل العلم من ربه؟ لقد علم ذلك الرجل (بما علمه الله) أنّ موسى لن يصبر على صحبته، ولكن لشغف موسى مصاحبة الرجل يرد عليه قائلاً:

- ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ٦٩﴾ [الكهف: 69]

السؤال: هل كان ربط موسى كلامه بالمشيئة يكفي لأن تتحقق تلك المشيئة؟

رأينا: نحن نظن أن موسى قد قال ذاك الكلام لكي يضمن صحبة الرجل، كقول الناس العاديين "إن شاء الله" إنْ شعروا هم أنْ لا حول لهم ولا قوة، وحتى يرى موسى بأم عينه أنّ علم ذاك الرجل حقيقي، لم يجادل ذاك الرجل موسى فقبل صحبته، وكان أول ما أثبت له الرجل من علمه أنه لن يصبر على صحبته كما أخبره من قبل. والسؤال الذي نود إثارته على نحو: لو حقاً نفذت مشيئة الله لطلب موسى الصبر على صحبة الرجل، فكيف إذاً سيصح قول الله في ذلك الرجل:

- ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ٦٥﴾ [الكهف: 65]

فالاختيار هو على النحو التالي:

1. نفاذ المشيئة بصبر موسى على صحبة الرجل ومن ثم تكذيب قول الرجل الصالح أنّ موسى لن يصبر على صحبته
2. عدم نفاذ المشيئة بصبر موسى على صحبة الرجل وتصديق قول الرجل أنّ موسى لن يصبر على صحبته

فيكون السؤال هو: أي الخيارين قد حصل فعلاً؟

إنّنا نزعم الظن بأنّ قول العبد الصالح لا يمكن تكذيبه لأنّه صادر عن علم حقيقي تلقاه مباشرة من ربه (**وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا**)، فموسى لا يمكن له أنْ يصبر على صحبة الرجل سواء ربط الأمر بمشيئة الله أو لم يربطه، فمشيئة الله تحتمل أنْ يصبر موسى أو أنْ لا يصبر، فالله نفسه لم يتدخل ليجعل موسى يصبر وفي الوقت ذاته لم يتدخل ليجعله لا يصبر، فالأمر متروك لمشيئة موسى نفسه، فإن شاء صبر وإن شاء لم يصبر.

نتيجة: فيكون بذلك الاحتمال الثاني هو (عدم صبر موسى) الأولى حتى لا يناقض القرآن بعضه بعضاً (أي ليصدق قول الله في علم ذاك الرجل).

أما في شأن إسماعيل، فمشيئة الله تحتمل لإسماعيل الصبر كما تحمل له عدم الصبر (كما كان الحال بالنسبة لموسى) وكون إسماعيل صبر على أمر الله لا يعني أنّ الله قد قدرّ له مشيئة معينة دون أخرى. ولتأكيد فكرة توافر مشيئة الله في الاتجاهين نورد قصة ذبح البقرة التي طلبها نبي الله موسى (بأمر ربه) من قومه:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٦٧ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ٦٨ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ٦٩ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ٧٠ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ٧١﴾ [البقرة: 67-71]

وقد يظن البعض أنّ القوم ذبحوا فعلاً البقرة لربط الأمر بمشيئة الله في قولهم "**وَإِنَّآ إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ**"، فنقول كلا، فالأمر ليس كذلك، فلقد ربط نبيهم موسى صبره بمشيئة ربه ولم يستطع الصبر على صحبة الرجل الصالح.

سنتعرض في مقالات مستقلة لاحقاً بحول الله لشخصية هذا الرجل، طارحين التساؤل التالي: من هو ذاك الرجل الذي ذهب موسى مع غلامه باحثاً عنه ليتعلم منه؟

لذا فالله أسأل أن تنفذ مشيئته بإرادته لى الإحاطة بشى من علمه لا يكون لأحد غيري إنه هو السميع العليم.

فالمشيئة كما ذكرنا سابقاً تحتمل الوجهين (فعل الشيء وعدم فعل الشيء)، وما قولهم ذاك إلا من باب –كما ذكرنا سابقاً- "وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا. إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ..."، وقد يبادرنا البعض بالقول ولماذا نفذت مشيئة الله هنا بذبح البقرة؟ نقول لو كان الأمر يتعلق بمشيئة الله ذاتها لكان عدم ذبح البقرة أولى لعلمنا أنّ الله أتبع ذلك بقوله "فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ"، فالقوم كانوا في شك من الأمر ولم يكونوا أصلاً عاقلين له، ومع ذلك (وعلى الرغم مما في نفوسهم من الريبة) نفذت المشيئة بذبح البقرة، والسؤال المشروع هو: لماذا؟

رأينا: إنّنا نعتقد أنّ الجواب غاية في البساطة فهو موجود في نفس الآيات السابقة، ولنكرر الآية نفسها للوصول إلى الإجابة التي نظن أنها صحيحة:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٦٧﴾ [البقرة: 67]

فلقد نفذت المشيئة بذبح البقرة ليس لربط بني إسرائيل ذلك بمشيئة الله وإنما –كما نظن- لسبب آخر وهو أنّ الله قد أصدر أمره بذبحها، فجاء بنص الآية "إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً"، فما يكون لبني إسرائيل ولا لغيرهم (سواء ربطوا الأمر بمشيئة الله أو لم يربطوا) أنْ يمنعوا (أو أنْ ينفذوا) مشيئتهم لشيء كان الله قد اصدر أمره فيه، وهذا ينقلنا مباشرة إلى موضوع جديد وهو قول الله

القول: الإنسان محكوم بالقول

قول الله: يحقق المراد

لقد ناقشنا سابقاً الافتراض أنّ لله إرادة ولله مشيئة وحاولنا تبينا الفرق بين إرادة الله ومشيئة الله وعلاقة ذلك بإرادة الإنسان ومشيئته، وقد افترضنا إمكانية التعارض بين إرادة الإنسان وإرادة خالقه (فيبقى الإنسان له مطلق الحرية في ما يريد) وعدم إمكانية تعارض مشيئة الإنسان مع مشيئة خالقه (ويصبح الإنسان مقيد في الاختيار من عدة بدائل لا يستطيع أن يضيف إليها شيئا). ولكن المهم بالقول هو أن الإنسان يبقى في الحالتين مخيرا غير مجبر، لانّ الله ترك إرادة الإنسان مستقلة عن إرادة خالقه على نحو:

إرادة الله		ح1	ح2	ح3	ح4	ح5	ح6 ... حن
إرادة الإنسان	ح1	ح2	ح3	ح4	ح5	ح6	... حن

وأنفذ مشيئته بالتعدد وليس بالإفراد فترك بذلك الباب مفتوحا للإنسان حتى يختار أي الطرق يسلك:

مشيئة الله ح1 ح2 ح3 ح4 ح5 ح6 ... ح^{ن}

مشيئة الإنسان ح^{س}

وقد يقول الإنسان بما أنّ إرادة الله ليست ملزمة ومشيئته تقضى الاختيار فكيف يفعل الله ما يريد، نقول أنّ ذلك لا يتحقق إلا بقول الله، فنحن نفتري القول بأنّ الأمور لا تتحقق على أرض الواقع إذا أرادها الله أو إذا شاء الله لها أنْ تحدث، فكم من أمر يريده الله ويحصل نقيضه، وأكبر مثال على ذلك الكفر والشرك و الظلم، فهل يريد الله الكفر أو الشرك أو الظلم؟ ولكن ألا يوجد كفر وشرك وظلم؟! وألَمْ يذكر الله في عشرات المواقع في كتابه الكريم أنّه لو شاء لكان كذا وكذا، ولكن لِمَ يحصل نقيض الأمر؟ أي لم تجري الأمور على شكل مغاير لما يريده الله ولما يشاءه؟ (والقارئ مدعو لمراجعة باب الإرادة وباب المشيئة السابقين). ولكن كيف ينفذ الله ما يريد أو ما يشاء؟

افتراء من عند أنفسنا: إنّنا نزعم الظن أنّ الأمور لا تتحقق على أرض الواقع إلاّ في حالة واحدة: إذا صدر بحقها قول الله. وهذا يعني أنّ الله يفعل ما يريد فقط عندما يصدر قوله فيه، ولنتدبر الآيات الكريمات التي تبين نفاذ قول الله:

- ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾ [البقرة: 117]
- ﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٧﴾ [آل عمران: 47]
- ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩﴾ [آل عمران: 59]
- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٧٣﴾ [الأنعام: 73]
- ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠﴾ [النحل: 40]
- ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٣٥﴾ [مريم: 35]
- ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: 82]
- ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٦٨﴾ [غافر: 68]

فهذه الآيات الكريمة تؤكد جميعها التلازم بين القول والتنفيذ، فإذا أراد الله أمراً ما وقضت مشيئته بذلك فإنه يصدر قوله فيه، وهذا يعني أنّ الأمر لا يتحقق بمجرد الإرادة وإلاّ لجاء قول الحق على نحو:

إنما أمرنا إذا أردناه يكون

أو على نحو

وإذا قضى أمراً فإنما يكون

أو على نحو

إذا أراد شيئاً يكون،

وهكذا

فهذه الصيغ لا ترد في القرآن الكريم على الإطلاق، فجل القول أنّه لو وردت مثل هذه الصيغ لكان الأمر يتحقق بمجرد حصول إرادة الله فيه، وهي لم ترد كذلك على نحو "إنما أمرنا إذا شئناه يكون"، ولو كان الأمر على هذا النحو لأصبح الإنسان (كباقي مخلوقات الله) مسيراً غير مخير. ولكن قضت حكمة الله بأنْ لا يتحقق الأمر إلاّ عند صدور الأمر الإلهي بالقول فيه، وعندها فقط تتوقف إرادة الإنسان ومشيئته ويكون حينها مسيراً غير مخير، مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: 36]

وهذا ما نسميه بقضاء الله الذي لا يقع إلا إذا صدر أمر الله فيه بالقول. والسؤال هنا يكون على نحو: كيف يقضي الله أمره كما تورد هذه الآية الكريمة؟ الجواب هو قوله تعالى:

- ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة: 117]
- ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران: 47]
- ﴿... إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ [مريم: 35]
- ﴿... فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾ [غافر: 68]

وهذا يعني – في ظننا- أنّ تحقيق الأمر يمر بثلاثة مراحل: (1) حدوث الإرادة فيه، (2) صدور المشيئة (قضاء الله) وصدور القول فيه

المشيئة (القضاء)	ح1	ح2	ح3	ح4 ... ح ن	
الإرادة:		ح س			
القول		ح س			

وبكلمات أخرى، فإذا ما حصلت إرادة الله بشيء، فإن الله (بعلمه) يعلم جميع الاحتمالات (اللامنتهية والتي لا تخرج عن نطاق مشيئته) فيصدر قوله بواحدة منها وهي ما اختارته إرادته من مشيئته : وهو ما يتحصل بالفعل على أرض الواقع. ولنأخذ المثال التالي لتوضيح الفكرة.

يقول الله تعالى في محكم التنزيل:

- ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾ [الإسراء: 16]

ولنلحظ الدقة الرائعة في هذا التصوير القرآني، فالله يقول إذا أراد حصول الهلاك لقرية ما:

الإرادة الإلهية: حصول الهلاك لقرية ما

فهل يحصل ذلك الهلاك مباشرة لمجرد حصول إرادة الله بذلك؟

الجواب: بكل تأكيد لا، ولكن حتى يحصل الأمر على أرض الواقع فلابد أن ينتقل الأمر إلى مشيئة الله (أي قضاء الله) للإحاطة بجميع الاحتمالات الممكنة؟ وقد يستغرب القارئ ويقول وأين ذلك في الآية القرآنية نفسها؟ فنقول: أنّ ذلك وارد في لفظة أمرنا.

ولعل من المفيد أنْ نتوقف هنا للحظة لفهم هذه الآية التي نظن أنها قد أشكلت على الفهم العام، فكثير من ظن أنّ الآية تعني أنّ الله قد أمر مترفي القرية بارتكاب الفسق (انظر تفسير القرطبي مثلا)، فنقول أنّ ذلك غير صحيح على الإطلاق، وإلاّ كيف يمكن إذاً فهم قوله تعالى؟

- ﴿... قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ [الأعراف: 28]

ولعل في ذلك خطورة كبيرة أنْ لا يتم مقارنة ما يأمر به الله وما يأمر به عدو الله وعدو الإنسان وهو الشيطان:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩﴾ [البقرة: 168-169]
- ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١﴾ [النور: 21]

وقد حصلت هذه المقارنة فعلاً في كتاب الله:

- ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٦٨﴾ [البقرة: 268]

فنحن نستغرب كيف يفهم البعض الأمر في قوله تعالى " وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا" على أنّ الله يأمر الناس بالفسق؟ أليس الأمر بالفسق من عمل الشيطان؟ فكيف يكون من عمل الرحمن؟

رأينا: إنّ ذلك أبعد ما يكون عن الحقيقة. وفي ضوء هذه الحقائق (وهو أنّ أمر الله لا يكون بفاحشة) فكيف إذاً يمكن فهم قوله تعالى:

- ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾ [الإسراء: 16]

رأينا: إنّنا نؤمن أنّ الله لم يصدر أمره لهم بالفسق، فهذا من كذب إدعاءهم، فلقد قالوا:

- ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ [الأعراف: 28]

لذا نحن نزعم الظن أنّ آية الإسراء يجب أنْ تفهم على نحو أنَ الله قد أمر مترفي القرية فقط، فتقرأ الآية بالوقف عند ذلك:

- ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾ [الإسراء: 16]

وهذا الوقف يعني أنّه لمّا صدر الأمر للمترفين، كان أمامهم الخيرات العديدة (أي مجمل مشيئة الله فيهم)، فاختاروا هم أنفسهم خيار الفسق وكان بإمكانهم اختيار غيره مما قضت به مشيئة الله لهم، وقد يبادرنا البعض بالسؤال الحتمي: وأين ذلك في الآية القرآنية؟

جواب: نحن نظن أنّ عنصر الاختيار موجود في قوله تعالى "أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا"، ولكن كيف ذلك يرد صاحبنا؟ أي بماذا إذاً أمر الله مترفي القرية؟

رأينا: نرد على ذلك باستحضار قوله تعالى في مكان آخر من كتابه العزيز:

- ﴿... ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٤٠﴾ [فصلت: 40]

نعم إننا نؤمن أنّ ذاك هو الأمر الإلهي الذي صدر لمترفي القرية "اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ"، وهو أمر الله الذي يصدر للناس كافة، وهذا بالضبط ما نقصد من حصول المشيئة، أي الاختيار من الاحتمالات التي قضاها الله في اللوح المحفوظ، ويكون واحدة منها ما أحدثته تلك الزمرة وهو الفسق (ح س)

مشيئة الله: ح1 ح2 ح3 ح4 ح س (فسق المترفين) ... ح ن

وهنا يتعرض البعض للسؤال التالي: لِمَ لَمْ تختار تلك الزمرة الصلاح بدلاً من الفسق؟ أليس ذلك ما قضى الله لهم به؟ نقول كلا، ولنقرأ بداية الآية السابقة لنتأكد أنْ ليس لله دخل بفسقهم وإنما كان ذلك بإرادتهم ومشيئتهم أنفسهم:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٤٠﴾ [فصلت: 40]

ونحن نفهم من هذه الآية أمرين اثنين: أولهما أنّ اختيارهم للفسق كان سببه إلحادهم في آيات الله (أي إصرارهم على الذنب)، فهم فسقوا بعد أن كذّبوا آيات الله، ففسقهم لم يكن سبباً لإلحادهم وإنما العكس تماماً، وثانيهما أنهم لما ألحدوا في آيات الله، قضت مشيئة الله إعطاءهم حرية العمل، فاختاروا الفسق، والحالة كذلك كان لزاماً صدور الأمر الإلهي (بالقول) بتنفيذ العقاب، ولكن على من؟

- ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٣﴾ [يونس: 33]

وعندما يصدر الأمر الإلهي بالقول (أي بعد تنفيذ الأمر) تنعدم عندها الحرية للإنسان ويصبح عندها مسيّراً لا مخيّراً مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦﴾ [يونس: 96]

ولعل من المفيد أنْ نستذكر في هذا المقام أمر الله للملائكة بالسجود وردة فعل إبليس على الأمر الإلهي بالسجود لآدم:

- ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢﴾ [الأعراف: 12]

وهذا يعني أنّ الله قد أمر إبليس بالسجود، ولكن ماذا كانت ردة فعل إبليس على أمر الله؟ أليس الفسق؟

- ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ٥٠﴾ [الكهف: 50]

نعم لقد فسق الشيطان عن أمر ربه، وكذلك فسق مترفوا القرية عن أمر ربهم. وسنعود إلى هذا التطابق في الموقفين ولكن بعد أن نتوقف لنطرح السؤال المثير التالي: لماذا رفض إبليس على وجه التحديد السجود لآدم في حين تقبل الأمر كافة الملائكة؟ وبكلمات أخرى فإننا نتساءل: في حين أنّ الأمر الإلهي بالسجود لآدم جاء لجميع الحضور (الملأ الأعلى) رفض فقط إبليس من بين جميع الحضور السجود لآدم، فهل كان ذلك من قبيل المصادفة؟ نقول كلا، إنّ معرفة السبب تتطلب منا قراءة الآيات القرآنية التي تتحدث عن الأمر الإلهي بالسجود لآدم بشيء من الدقة والتميز، وسنحاول فيما يأتي محاولة التفريق بين الأمر الإلهي للملائكة والأمر الإلهي لإبليس بالسجود لآدم، إننا ندعي أنّ الأمر الإلهي للملائكة جاء من باب قول الله، بينما جاء الأمر الإلهي لإبليس بالسجود لآدم من باب مشيئة الله، وهذا يعني أنّ الملائكة لم تكن تستطيع عدم تنفيذ قول الله لأنّ قول الله نافذ لا محالة، فكانت النتيجة:

- ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٣٠﴾ [الحجر: 30]
- ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٧٣﴾ [ص: 73]

بينما كان إبليس مخيراً بالسجود لأنّ الأمر من الله لإبليس بالسجود جاء من باب المشيئة، فاختار إبليس أن لا يسجد، وقد يرد البعض بالقول: وأين ذلك في كتاب الله؟ هل فعلاً كان الأمر من الله للملائكة بالسجود لآدم يختلف عن الأمر الإلهي لإبليس بالسجود لآدم؟

رأينا: إنّنا ندعو الجميع إلى قراءة الآيات القرآنية التالية من هذه الزاوية ليروا الجديد فيما نقول وندّعي، قال تعالى:

- ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [البقرة: 34]

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء: 61]
- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾ [طه: 116]

لعل جل الفكر الإسلامي درج على عدم التميز بين الأمر الإلهي للملائكة والأمر الإلهي لإبليس بالسجود لآدم، فهم اعتقدوا أنّ الأمر كان أمراً واحداً موجهاً للجميع في آن واحد، ولكننا نسأل من ظن ذلك سؤالاً غاية في البساطة ربما لن نحتاج إلى المجادلة فيه كثيراً وهو: إنّ جميع الآيات السابقة تبدأ بالقول "وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ" فهل كان إبليس إذاً واحداً من الملائكة؟ إنّ القول أنّ الأمر الإلهي كان أمراً واحد صدر للجميع بنفس الوقت ونفس الصيغة يعني بما لا مجال للشك فيه أنّ إبليس كان أحد الملائكة وهو أمر ربما لا يتقبله الفكر الإسلامي على الإطلاق، فإبليس لم يكن من الملائكة، أليس كذلك؟ فالآيات القرآنية السابقة تثبت أنّ قول الله اسْجُدُوا لِآدَمَ كان موجهاً للملائكة فقط، وما دام إبليس ليس واحداً منهم بكل تأكيد (بدلالة أنّ إبليس لا ينتسب إلى من وجه الله لهم الأمر بالسجود في هذه الآيات الكريمات)، فالأمر إذاً في هذه المرة لا يعنيه لأنّ الخطاب غير موجه له على وجه الخصوص، فهو ليس من جمع الملائكة بدلالة الآية الكريمة التالية التي تثبت نسب إبليس:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: 50]

فلو لم يثبت نسب إبليس بأنّه ليس من جنس الملائكة لسلّمنا بالقول أنّ الأمر الإلهي جاء أمراً واحداً للجميع وفي نفس الوقت، ولأصبح لا مناص من الإيمان بأنّ إبليس هو واحد من الملائكة الذين رفضوا السجود لآدم ولتعارض ذلك تعارضاً صارخاً مع قوله تعالى بحق الملائكة:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: 6]

إننا نرى أنّ حقيقة الأمر هي أنّ الله سبحانه أصدر أمرين اثنين: أمراً موجهاً لجمع الملائكة بصيغة العموم وآخر موجهاً لإبليس على وجه الخصوص، وقد يرد البعض بالقول: وأين ذلك في كتاب الله؟ فنرد عليهم بالقول أنّ ذلك واضح في الآية القرآنية التالية:

- ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: 12]

فالمتفحص للآية القرآنية يدرك على الفور أنّ أمراً إلهياً صدر لإبليس على وجه التحديد للسجود لآدم منفصلاً عن أمر السجود الذي صدر للملائكة، فلو كان الأمر بالسجود للملائكة يتضمن الأمر لإبليس لجاء قول الله في هذه الآية الكريمة على نحو (قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتكم)، ولكنّ الدقة والروعة القرآنية تبين أنّ الأمر هنا صدر على سبيل الإفراد "إِذْ أَمَرْتُكَ" موجهاً فقط لإبليس ما دام أنّه ينتمي إلى جنس منفصل وهم جنس الجن، وسنرى لاحقاً تبعات هذا الأمر لغوياً، فما دام إبليس ينتمي إلى جنس غير جنس

الملائكة فهو إذاً بحاجة إلى لغة تخاطب تختلف عن لغة التخاطب مع الملائكة، فكل جنس (الملائكة والجن والإنس) له لغته الخاصة به.

والجميل في هذا التصور – في نظرنا- هو أنّه لو لم يصدر أمرا مستقلاً لإبليس بالسجود لكانت حجة إبليس بعدم السجود لآدم مختلفة ولربما أنقذته مما أوقع نفسه فيه، فلربما كان يكفي إبليس الرد بالقول لربه "أنّ أمرك صدر للملائكة وأنا لست واحد منهم فما ظننت أنّه يخصني"، ولكن لمّا صدر أمر إلهي مستقل لإبليس على وجه التحديد لم يكن لإبليس أن ينفذ بتلك الحجة، لذا جاء رده على الفور "أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ".

نستنج إذاً أنّ الله قد أصدر أمرين بالسجود لآدم: أمراً موجهاً للملائكة بصيغة الجمع:

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا

وآخر موجهاً لإبليس بصيغة المفرد:

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ

ويبقى السؤال المثير التالي: كيف اختلف الأمران حتى سجد الملائكة كلهم أجمعون:

- ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ٣٠﴾ [الحجر: 30]
- ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ٧٣﴾ [ص: 73]

لاحظ عزيزي القارئ كيف تثبت هذه الآيات أنّ إبليس ليس من جنس الملائكة، فالتأكيد جاء مرتين على أن الملائكة لم يتخلف منهم أحد عم السجود وكان ذلك باستخدام التركيب " كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ"

ورفض إبليس السجود، فتخلف عن الركب:

- ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣١﴾ [الحجر: 31]
- ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٧٤﴾ [ص: 74]

إنّ المدقق في آية نسب إبليس يجد الدقة القرآنية واضحة من النظرة الأولى، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ٥٠﴾ [الكهف: 50]

وهنا نسأل القارئ الكريم سؤالاً غاية في البساطة وهو: ماذا كان من إبليس لحظة صدور الأمر له بالسجود؟ الجواب بكل سهوله " فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ"، حاول الآن عزيزي القارئ ربط ذلك بآية المترفين الذين أمرهم الله، ماذا كانت ردة فعلهم على أمر الله؟ لقد كانت بالضبط كردة فعل زعيمهم إبليس:

- ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ١٦﴾ [الإسراء: 16]

ولقد ذكرنا سابقاً أنّ أمر الله على نحو:

- ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: 28]

ولذا بيّنّا أنّ أمر الله ذاك كان من باب المشيئة على نحو:

- ﴿... ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [فصلت: 40]

وبنفس المنطق، فما دام أنّ إبليس فسق عن أمر ربه، كان الأمر له في الأصل من باب المشيئة كذلك، لذا في حين أنّ الصيغة وردت بحق إبليس على نحو "أمرتك" في قوله تعالى:

- ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: 12]

لم ترد مثل هذه الصيغة في حالة الملائكة وذلك لسبب بسيط وهو أنّ السجود بالنسبة للملائكة لم يأت من باب المشيئة وإنما جاء من باب القول، وقول الله كما بيّنّا سابقاً نافذ لا محالة بينما مشيئته تقتضي التخيير.

ولعلنا نتوقف هنا للحظة لنستميح السادة العلماء العذر بتصحيح (نظن أنه) خطأ في الرسم القرآني وهو استبدال علامة الوقفۛ بعلامة الوصل ۖ في الآية الكريمة التالية:

- ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: 12]

ووضع علامة الوقف ۛ بعد كلمة مترفيها في الآية التالية:

- ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: 16]

وذلك ليستقيم المعنى بأنّ شيئاً مقدراً يجب فهمه لذا استوجب القطع، وحتى لا يذهب ذهن القارئ في حالة الوصل أنّ الله "يأمر بالفسق، أو أنّ الله أصدر أمره بشيء (كسجود إبليس لآدم مثلاً) فلم ينفذ. لذا علينا أن نميّز بين أمر الله إن جاء على سبيل المشيئة وأمره إن كان من باب القول، ففي حين أنّ أمره على سبيل المشيئة يحتمل التعددية ومن ثم الاختيار، يكون أمره على سبيل القول نافذ لا محالة.

ولعل هذا الطرح يحل إشكالية أخرى كبرى في الفكر الإسلامي تتمثل بالطرح التالي: ألم يأمر الله آدم بعد حادثة السجود بالسكن في الجنة وعدم الأكل من الشجرة؟ فكيف استطاع آدم الخروج عن أمر الله والأكل من الشجرة؟ فقد يرد البعض بالقول لأنّ الشيطان قد وسوس له، فنرد بأنّ سؤالنا أكبر من ذلك وهو: كيف يستطيع الشيطان أن ينفذ أمره في مكان المفروض أنّه كله يسير بأمر الله وحده؟ فالله قد أمر آدم أن لا يأكل من الشجرة والشيطان وسوس له بالأكل منها، فهل "تغلبت" إذاً وسوسة الشيطان على أمر الله؟! كلا، إنّ طرحنا السابق ربما يحل هذه الإشكالية بكل يسر وسهوله، ولكن كيف؟

رأينا: إنّنا نعلم بنص القرآن الكريم أنّ الله قد أمر أدم وزوجه القيام بشيئين بعد حادثة السجود وهما: السكن في الجنة وعدم الأكل من الشجرة، ونعلم كذلك أنّه في حين أنّ آدم وزوجه امتثالا لأمر ربهم فسكنوا الجنة، خرجا عن أمر ربهما المتمثل بعدم الأكل من الشجرة، والسؤال الذي نطرحه هو: لماذا لم يخرجا عن أمر ربهما بخصوص السكن في الجنة بينما خرجا عن أمر ربهما بخصوص عدم الأكل من الشجرة؟ إنّ الجواب واضح وجلي في كتاب الله، فالأمر لآدم وزوجهما بالسكن في الجنة جاء من باب أمر الله بالقول، بينما جاء أمر الله الموجه لآدم وزوجه بعدم الأكل من الشجرة من باب المشيئة، وحتى يتبين القارئ وجاهة ما نفتري فإننا ندعوه لتدبر مفردات الآية التالية:

- ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ٣٥﴾ [البقرة: 35]

فلعل القارئ أدرك بنفسه بكل سهولة ويسر أنّ الآية الكريمة تنقسم إلى شطرين فيما يخص الأمر الإلهي:

(1) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ

(2) وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ

ففي حين أنّ الأمر الإلهي بالسكن كان مرتبطاً بقول الله بدليل مفردة "وَقُلْنَا" وفعل الأمر اسْكُنْ، كان الأمر الإلهي بالأكل " وَكُلَا" مع عدم الاقتراب من الشجرة "وَلَا تَقْرَبَا" مرتبطاً بالمشيئة "حَيْثُ شِئْتُمَا"، وكان التخيير في حالة المشيئة واضح في قوله تعالى "فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ".

مشيئة الله تسبق إرادته

وقد يسبقنا البعض هنا بالسؤال: لماذا يريد الله (وقبل كل شيء) أنْ يهلك قرية مثلاً؟ أي هل تحصل إرادة الله حسب هواه؟ نقول كلا، إنّ إرادة الله بتدمير القرية لا تحصل قبل أنْ يقع أولئك بمحض إرادتهم في الفسق، قال تعالى:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٤٠﴾ [فصلت: 40]

إنّ هذه الآية الكريمة تؤكد على أنّ القوم إذا ما أصروا على الكفر (وتكذيب آيات الله)، عندها فقط يصدر الأمر الإلهي لهم بالخيار التام ليسلكوا أي طريق شاءوا، فعقاب الله (وإرادته بالعقاب من قبل) لا تحصل إلاّ نتيجة لما أوقع القوم أنفسهم فيه من الظلم مصداقاً لقوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ١١٧﴾ [هود: 117]

ولكن لنتذكر أنّ الخيارات المطروحة جميعها (بما فيها وقوعهم في الفسق) قد قضت بها مشيئة الله جميعاً من ذي قبل، فهم لا يستطيعوا اختيار بديل ليس مسطوراً بمشيئة الله، قال تعالى:

- ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾ [الإسراء: 58]

وهذا يعني بالضرورة أنّ ما سيختارون هو أحد البدائل التي قضت بها مشيئة الله، وتكون بذلك مشيئة الله (التي تعطي الخيار للإنسان) سابقة لإرادة الله بتدميرهم التي حصلت نتيجة لما اختاروا من تلك البدائل التي كانت متوافرة. فتكون الصورة على النحو التالي:

مشيئة الله: ح1 ح2 ح3 ح4 ح س (فسق المترفين) ... ح ن

إرادة القوم	ح س (فسق المترفين)
مشيئة القوم	ح س (فسق المترفين)
فعل القوم	ح س (فسق المترفين)
	إذا
إرادة الله	تدمير القرية
قول الله	الأمر بتدمير القرية

ولنلحظ هنا أنّ إرادة الله بتدمير القرية مرتبطة بفعل القوم بالفسق، فلو أختار القوم بديلاً آخر مما قضت به مشيئة الله (ولنقل ح3 مثلاً) لتغيرت إرادة الله تبعاً لتغير إرادة ومشيئة وفعل القوم، فإرادة الله تختلف باختلاف البدائل، وهذا ما نفهم من قوله:

- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: 12]

فإحاطة الله بالعلم لا تعني العلم بما سيختار القوم وما سيقع بهم نتيجة اختيارهم، بل هي أكثر من ذلك فهي تعني العلم بما ستكون عليه الحال لو اختلفت الاختيارات، فالله قد أحاط بكل شيء علما لأنّه يعلم ما ستكون عليه الحال مع كل بديل مما قضت به مشيئته، فالله لا يتدخل إذاً باختيار الإنسان وإنما يحدد الإنسان بفضاء تلك الخيارات (المشيئة)، ويعلم ما ستكون عليه الحال في كل واحدة من هذه البدائل حتى وإنْ أختار الإنسان واحدة منها فقط، وذلك لأنّ مشيئة الله تقتضي التعدد، قال تعالى:

- ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: 251]

فالآية الكريمة تشير أنّ الله قد علم داود "مما يشاء"، وهذا يعني أنّ الله قد شاء لنفسه علماً كثيراً وما كان تعليم داود إلاّ شيئاً يسيراً من ذلك العلم، وهذا لا ينطبق فقط على علم داود أو سليمان أو موسى وعيسى والنبيين جميعاً، وإنما هو كذلك بالنسبة لعلم الناس العاديين:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ [البقرة: 255]

خلاصة

نستنتج من النقاش السابق أنّ الإنسان مخير بإرادته بنفسه، ومقيد بالاختيار بمشيئة خالقة ولكنّه مسيّر فقط بقول ربه، أي لا يصبح الإنسان مسيراً إلا بعد وقوع القول، ولعل في هذا النقاش رداً على من ادعى أنّ الأمور محسومة مسبقاً وظن أنْ لا داعي لبذل الجهد لأنّ ذلك سيكون من باب إهدار الوقت والجهد والدوران في حلقة مفرغة، فنقول كلا إنّنا نجد في قرآننا أنّ الأمور حتى تتحقق تمر بثلاث مراحل: مرحلة الإرادة ومرحلة المشيئة ومرحلة القول، والإنسان مستقل الإرادة عن خالقه، فـ للخالق إرادة وللإنسان إرادة (قد لا تلتقي في كثير من الأحوال مع إرادة خالقه)، وللخالق مشيئة وللإنسان مشيئة (تختار من ما قضى الله من البدائل اللامنتهية لكل حالة)، وهنا تكمن حرية الإنسان: يريد ما يشاء ويختار واحدة من البدائل التي قضت بها مشيئة الله، ولكن يصبح الإنسان مسيراً فقط بعد نفاذ قول الله:

- ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٣﴾ [يونس: 33]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦﴾ [يونس: 96]

إنّنا نفهم أنّ كلمة الله قد حقت على هؤلاء القوم أنْ لا يؤمنوا ليس لأنّ الله يريد ذلك وليس لأنّ مشيئته قضت بذلك على وجه التحديد، بل لأنهم هم أنفسهم اختاروا تلك الطريق، وبكلمات أخرى إنّ كلمة ربك لم تكن هي السبب بل هي النتيجة:

- ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾ [الإسراء: 16]
- ﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ ٨٥﴾ [النمل: 85]

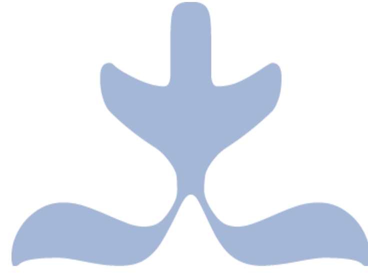
فهم لمّا أرادوا الفساد واختاروه بأنفسهم ووقعوا فيه، جاءت كلمة ربك لتكون هي الحق، فـ وقوع قول ربك لا يكون إلاّ رداً على ما كسبت أيدي الناس، فلقد ورد هذا المعنى في العديد من الآيات القرآنية:

- ﴿.... وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٢﴾ [الجاثية: 22]

إنّنا نخلص إلى نتيجة مفادها أنَ الله يصدر قوله (وَوَقَعَ الْقَوْلُ) بناءاً على ما كسبت أيدي الناس (فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ)، ولنعلم أيضاً أنّ الله "يفعل ما يريد" فقط عندما يصدر قوله في ما يريد مما يشاء، وهذا

يعني أن الأشياء مخيرة بالإرادة ومحددة بالمشيئة ومسخرة بالقول. فالإنسان له الحق أنْ يريد ما يشاء، ولكنه لا يستطيع أنْ يخرج عن نطاق ما قضت به إرادة الله من مجمل البدائل التي لا يعلمها إلا الله، ويصبح لا حول له ولا قوة إذا نفذ بها قول الله. فالإرادة هي هوى النفس والمشيئة هي علم الله المحيط بكل شيء والقول هو التطبيق العملي لعلم الله كما يريده هو.

والله أعلم



هل لعلم الله حدود؟

الجزء الثاني

جدلية القلب والعقل(1)



الجزء الثاني: جدلية القلب والعقل (1)

نظن أن ما أثرناه في بعض مقالاتنا السابقة (خاصة تلك تحت عنوان "جدلية الحقيقة والمجاز") قد جلبت فضول كثيرين وهم يتساءلون عن موقع "العقل" (أو ما يعرفونه هم بالمخ أو الدماغ الموجود في الرأس) في السياقات القرآنية، فمراد قولهم: لِمَ لَمْ يُذكر الدماغ – على الرغم من أهميته كوحدة عضوية (كالقلب واليدين والرجلين، الخ)- في القرآن الكريم؟

رأينا: نحن نظن أنه غالباً ما حدثت الفوضى في استخدام الألفاظ حتى على لسان أهل العلم والاختصاص، ولوى الكثيرون أعناق النصوص لتتكيّف مع تصوراتهم للأمور المطروحة، وغالباً ما ضاعت الحقيقة بين من يؤيد الاستخدامات والمعاني الحرفية للنصوص القرآنية من جهة ومن يحلق في سماء الاستعارات والمجازات اللغوية من جهة أخرى، فأين يا ترى تكمن الحقيقة؟

نحاول في هذا البحث تسليط الضوء على هذا الجانب بمحاولتنا ربط مجموعة من السياقات القرآنية بعضها مع بعض، وفي الوقت الذي نجزم أننا لم نتوصل إلى الحقيقة الثابتة، نعتقد أنّ في دراستنا هذه إضاءات قد تسعف في البحث الحقيقي عن تلك المعاني. ولنبدأ بالافتراء الكبير التالي الذي هو بلا شك من عند أنفسنا:

⇐ **افتراء 1**: إننا نفتري الظن بأنّ القلب (الذي في الصدر) هو المحرك الرئيسي للتفكير وليس الدماغ (الذي في الرأس) الذي لا يعدو دوره أكثر من مخزن للمعلومات. فالدماغ – برأينا- لا يتعدى دوره أن يكون أكثر من "سدة البيت" (أو attic باللسان الأعجمي) التي تدّخر فيها ما جمعته لعائلتك وتسترجعه منه عند الحاجة إليه، أما وحدة إصدار الأوامر فهي القلب، (ولا نقصد به مضخة الدم الموجودة في داخل جسم الإنسان) بل هو ذلك العضو الذي بحجم المضغة الموجود في أعلى مضخة الدم الموجودة داخل صدر الإنسان.

⇐ **افتراء 2**: كما أننا نزعم الفهم أنّ القرآن الكريم يثبت أنّ حياكة الأمر تحصل أولاً - وقبل كل شيء- في القلب الذي هو – في ظننا- محرك الجسد كله (decision-making organ) بأوامره التي يصدرها إلى الدماغ الذي يخاطب بدوره أعضاء الجسم كلها، فالأمر يذهب من القلب إلى الدماغ وليس العكس كما ظن الكثيرون وزعموا.

الدليل

إن ما افترينا بخصوص القلب والدماغ يعني بمفردات القرآن الكريم – حسب فهمنا- أنّ القلب هو المستقر والدماغ هو المستودع، قال تعالى:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۝٩٨﴾ [الأنعام: 98]

وقد وردت هذه الصيغة نفسها بحق المخلوقات الأخرى التي تتمتع هي كذلك بمستقر ومستودع، قال تعالى:

- ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦﴾ [هود: 6]

وهذا هو – في ظننا- التشابه الحقيقي بين البشر من جهة والدواب والطيور من جهة أخرى، مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ۝٣٨﴾ [الأنعام: 38]

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن التشابه بين الإنسان من جهة والدواب والطيور التي تطير بجناحيها من جهة أخرى يكمن بوجود المستقر والمستودع، لذا فإن كل كائن يملك المستقر والمستودع سيتم حشره إلى ربه ومحاسبته على ما عمل في حياته.

وهذا يتطلب – في ظننا- ضرورة الفصل بين الدواب من جهة والأنعام من جهة أخرى، لأن الدواب لها مستقر ومستودع بينما الأنعام ليس لها مثل هذا المستقر والمستودع. كما يجب الفصل بين الطيور التي تطير بجناحيها التي لها – في ظننا- مستقر ومستودع والطير التي لا تطير بجناحيها التي ليس لها مستقر ومستودع. للتفصيل انظر مقالاتنا تحت عنوان لحم الخنزير 1 و لحم الخنزير 2

وسنحاول في شرحنا التالي تبيان ليس فقط آلية التنفيذ هذه (أي إصدار الأوامر من القلب إلى الدماغ)، بل الخوض أيضاً بتبعات هذا الإدعاء. وبحثنا هذا يؤطر لمفردات متعددة مثل الجسم والجسد والنفس والصدر والفؤاد والروح والعقل والقلب، الخ. وضرورة التفريق بينهم.

الله يعلم وانتم لا تعلمون

تتكرر فكرة أن الله يعلم ونحن لا نعلم كثيراً في كتاب الله، قال تعالى:

- ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٢١٦﴾ [البقرة: 216]
- ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٢٣٢﴾ [البقرة: 232]
- ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧٤﴾ [النحل: 74]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝١٩﴾ [النور: 19]

ولكن هل يعني ذلك أننا نحن البشر لا نعلم إطلاقاً؟ وإن كان كذلك فكيف يمكن التوفيق بين مثل هذه الآيات الكريمة مع ما ورد في أماكن أخرى تثبت حصول العلم لنا نحن البشر؟

- ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦﴾ [آل عمران: 66]
- ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: 85]

فذلك لا ينفي العلم عن البشر بشكل كلّي، فقد يتحصل للبشر إذاً شيئا من العلم:

- ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا ٢٧﴾ [الفتح: 27]
- ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: 85]

ولا ننسى كذلك أن الله سبحانه قد أثبت أنّ العلم درجات، وقد يرقى بعض الناس درجات من ذلك الفضل الإلهي:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١﴾ [المجادلة: 11]

وقد قضت سنة الله أن يحيط بعض الناس بشيء من علمه إن هو شاء ذلك:

- ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ [البقرة: 255]

ولكن في نهاية المطاف يبقى علم البشر قليلا جداً إذا ما قورن بعلم الله، فعلم الله هو الغاية القصوى، والحد الذي لا يمكن أن يتصوره البشر:

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾ [يوسف:76]

فهذا نبي الله يعقوب ذو علم بشهادة الله نفسه:

- ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦٨﴾ [يوسف: 68]

وهذا يوسف يشهد لنفسه بأنه عليم:

- ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾ [يوسف: 55]

(دعاء: أسأل الله رب أن يقضي أمره لي الإحاطة بشئ من علمه لا ينبغي لغيري إنه هو العلي العظيم)

لاحظ أن الله تحدث عن يعقوب بصيغة أنه ذو علم، بينما جاء الحديث عن يوسف على أنه عليم، ولو حاولنا ربط ذلك بما جاء في قوله تعالى:

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف:76]

سنخلص إلى نتيجة أن يوسف أعلى مرتبة في العلم من والده يعقوب، فالعليم (يوسف)هو فوق كل ذي علم (يعقوب) مصداقاً لقوله تعالى (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)، وسنتعرض لهذا في مبحثنا عن قصة يوسف لاحقاً بحول الله وتوفيقه.

(لذا فالله رب أسأله أن يعلمني من لدنه علماً إنه هو السميع العليم)

الله يعلم كل شيء

ومن كمال علم الله أنه يعلم كل شيء، فلا شيء يغيب عن علم الله الواحد الأحد:

- ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾ [البقرة: 231]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَاۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْۚ وَلَا

يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾ [البقرة: 282]

- ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ [الأنعام: 80]
- ﴿قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ [الأعراف:89]
- ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ﴿٩٨﴾ [طه: 98]
- ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ [غافر: 7]
- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴿١٢﴾ [الطلاق: 12]

فالله سبحانه **بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**، وقد **وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا**، وهو كذلك قد **أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**، أليس كذلك؟

وهنا أتوقف مع القارئ الكريم لطرح فكرة غاية في الغرابة والصعوبة، ولا أتصور أن يتقبلها الفكر الإسلامي بسهولة (لأنها بلا شك افتراء من عند نفسي، لا أطلب من القارئ الكريم الترويج لها ما لم يصبح هو نفسه مقتنعاً بها، مدركاً لتبعاتها)، لكني أعتقد أنها (إن صحت) ستحل قضايا شائكة أعيت الفكر الديني لعقود طويلة من الزمن، وستفتح –لا شك عندنا- أفاقاً عظيمة من البحث والدراسة، وجل ما أرجوه هو إعطائي فسحة من الوقت لطرح الفكرة بأقل جهد ممكن، وإن تعذر عليّ ذلك وأخطأت الفهم فإني أسأل الله أولاً المغفرة وإخواني المسلمين بعد ذلك أن يلتمسوا لي العذر، فأنا لست أكثر من طالب علم، باحث عن الحقيقة أينما وجدت وفي أي صورت وجدت.

أما بعد،

تتلخص الفكرة في محاولة جلب الانتباه إلى الصيغ القرآنية التي وردت بها الآيات السابقة التي تتحدث عن إحاطة الله العلم بكل شيء، فلو دققنا النظر في تلك الصيغ جميعاً لوجدناها قد وردت بصيغة أن الله عليم، وقد وسع، وقد أحاط بـ "**كُلَّ شَيْءٍ**" علماً، أليس كذلك؟ نعم، ربما يرد البعض بالقول، ولكن ما المشكلة؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أنه لو دققنا النظر في جميع السياقات الخاصة بعلم الله المطلق لوجدناها مرتبطة جميعها بالأشياء، فعلم الله متعلق بـ "**كُلَّ شَيْءٍ**"، ولو حاولنا التمسك بحرفية مفردات النص كما هي، لربما صح لنا الافتراء بأن علم الله مطلق إذا كان الأمر متعلقاً بعلمه بـ الأشياء، فالله قد أحاط علمه بـ **كُلَّ شَيْءٍ** بنص الآيات نفسها.

الافتراء الخطير جداً: نحن نفتري الظن بأنه إن كان الأمر يتعلق بالأشياء فعلم الله مطلق لا محالة، ولكننا نظن أنه إذا كان الأمر يتعلق بـ "غير الأشياء"، فالمسألة فيها وجهة نظر أخرى. كلام غاية في الخطورة، أليس كذلك؟

الدليل

إننا نظن أن لب القول هنا سؤال خطير جداً، ألا وهو: هل علم الله مطلق إذا كان الأمر يتعلق بغير العلم بالأشياء؟

وكيف يكون ذلك؟ سيرد الكثيرون بالقول.

رأينا: نقول دعنا نعمل التفكير بعض الشيء في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٠١﴾ [المائدة: 101]
- ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٨٥﴾ [الأعراف: 85]
- ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥﴾ [هود: 85]
- ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ١٨٣﴾ [الشعراء: 183]

وسؤالنا هو ما معنى مفردة "شيء" التي ترد في السياقات القرآنية؟ ومتى يكون هناك "شيء"؟ فهل يمكن أن نتحدث عن شيء وهو غير موجود أصلاً؟ فهل يمكن أن تسأل عن شيء لا أساس له في الوجود؟ فهل –مثلاً- يمكن أن تبخس الناس شيئاً غير موجود أصلاً؟ وهل يمكن السؤال عن شيء لا يمكن تصوره؟

رأينا: إن الجواب يكون – في ظننا- بالنفي قطعاً، ولنتدبر الآية الكريمة التالية:

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٥﴾ [آل عمران: 5]

افتراء من عند أنفسنا: إننا نزعم الفهم لهذه الآية الكريمة على النحو التالي: أنّ الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء كموجودات الأرض والسماء، فحتى يكون هناك شيء لا بد أن يكون له أصل أو وجود، أليس كذلك؟ وإن لم يكن له أصل أو وجود فهو لم يصبح شيئاً بعد. ونحن نفتري القول أنه إن صحّ زعمنا هذا، فإننا نفهم أن الله قد أحاط بكل شيء علماً على نحو كمال علمه بالموجودات، فإن كان جزءً من الموجودات أصبح شيئاً، وأصبح علم الله فيه مطلق، وإن لم يصير بعد جزءً من الموجودات فذلك لا ينطبق عليه مطلق علم الله.

قد يقول البعض على الفور: وكيف يمكن أن يكون من غير الموجودات؟

جواب: أن لا يكون "شي"؟

- هذه فلسفة هزيلة لا نرغب فيها، ربما يرد البعض بالقول.

- نقول نعم، ولكن بغض النظر عن الركاكة في صياغة الفكرة، إلاّ أننا لا زلنا نظن (ربما مخطئين) أن الأمر قد يكون كذلك، ولنمعن النظر بالآيات الكريمات التالية في ضوء هذا الزعم:

- ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾ [مريم: 9]
- ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ۝٦٧﴾ [مريم: 67]
- ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان: 1]
- ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٣٩﴾ [النور: 39]

فكما تشير الآيات السابقة لم يكن الإنسان قبل خلقه شيئاً، فمتى خلق الإنسان أصبح جزءاً من الموجودات وأصبح العلم به جزء من العلم بالموجودات لأنه عندئذ أصبح شيئا. فمن ذهب إلى السراب وظن أنه ماءً لا شك لن يجده شيئاً لأنه ببساطة غير موجود، إما إن كان هناك شيء فعلاً فسيجده.

إننا نود من خلال النقاش السابق التمييز بين نوعين من العلم:

1. العلم بالموجودات (أي الأشياء)
2. والعلم "بغير الموجودات"، (أي إن لم تكن قد أصبحت شيئاً بعد)

وبناء على ذلك نقدم الافتراء الخطير التالي: أما العلم بالموجودات فهو العلم بالأشياء وعلم الله بها لا شك كامل، أما العلم "بغير الموجودات" فهو ليس جزء من علم الأشياء وعلم الله فيها ليس مطلقاً. كلام خطير، أليس كذلك؟

ما الذي سيعلمه الله؟

فلنستعرض بعض آيات القرآن الكريم ولنمعن النظر بسؤال واحد هو: ما الذي سيعلمه الله إن كان علمه مطلق بالأشياء وبغير الأشياء؟

فلقد وردت لام التعليل "أو الغاية" بصيغة الحصر على نحو "إِلَّا لِنَعْلَمَ":

- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٤٣﴾ [البقرة: 143]

وجاءت غير محصورة على نحو "لِيَعْلَمَ":

- ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠﴾ [آل عمران: 140]
- ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧﴾ [آل عمران: 166-167]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٩٤﴾ [المائدة: 94]
- ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢٥﴾ [الحديد:25]
- ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٢١﴾ [سبأ: 20-21]

ووردت نفس الصيغة ولكن بشيء من التوكيد اللفظي على نحو **وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ**:

- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ١١﴾ [العنكبوت: 10-11]

وجاءت على صيغة السؤال الاستنكاري على نحو **أَمْ حَسِبْتُمْ** ... **وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ**:

- ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾ [آل عمران: 142]
- ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٦﴾ [التوبة: 16]

وجاء جواب **أحسب** مؤكدا:

- ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣﴾ [العنكبوت: 2-3]

والملفت للانتباه أن الله سبحانه وتعالى يحدث أمراً ما، ليتحصل العلم بأمر آخر، فها هو يبعث أهل الكهف من رقدتهم تلك " **لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا**" :

- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ١٢﴾ [الكهف: 12]

وها هو يبتلى بعض عباده ليحصل العلم:

- ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ١٣﴾ [محمد: 13]

والمدقق في اللفظ القرآني في الآية التالية يجد أن استخدام "حتى" تدل على الغاية من الابتلاء، أليس كذلك؟

والمدقق في الآية الكريمة التالية يجد أن علم الله في هذا الأمر لم يكن سبباً لحصوله بل نتيجة له، بدليل وجود ظرف الزمان الذي يدل على وقت حصول العلم بالأمر:

- ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٦٦﴾ [الأنفال: 66]

وهنا نصل إلى ذروة ما نود طرحه: كيف يمكن التوفيق بين قول الله أنه قد "أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا" في أكثر من مكان في كتابه الكريم وقوله " الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا" أو قوله "وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ" وقوله "ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا"، ونحوهم، كما ورد في جميع الآيات السابقة؟

وقبل الانتقال إلى نقطة جوهرية أخرى لا بد أن نجلب انتباه القارئ الكريم إلى ملاحظة بسيطة ربما استطاع الكثيرون الوصول إليها بعد هذا السرد، ألا وهي أن جميع السياقات القرآنية التي تتحدث عن علم الله المطلق كانت تتحدث عن الأشياء على نحو **بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**، و **وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا**، و **أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**، أما صيغ **لِنَعْلَمَ**، أو **حَتَّىٰ نَعْلَمَ**، أو **فَلَيَعْلَمَنَّ** فقد وردت عند الحديث عن الناس. وهنا – في ظننا- يكمن الفرق. ولكن كيف؟

افتراء من عند أنفسنا: بناءً على ما سبق من افتراءات من عند أنفسنا، فإننا نزعم القول أن علم الله مطلق كامل شامل بالأشياء، أما علمه بالناس فهو ليس كذلك. كلام جد خطير، أليس كذلك؟

نعم، ولكن لهذا الظن تبعاته الجمة التي لا بد من الوقوف عليها، وأهمها أن مثل هذا الفهم (على علاّته) يمكن أن يساعد – في رأينا- في حل إشكالية الخلق والحساب والثواب والعقاب.

ولكن قبل الولوج في خضم ذاك الحديث لابد من إثارة بعض التساؤلات التي ربما يثيرها الكثيرون، وأولها ألا يعلم الله الغيب؟

الله يعلم الغيب

نعم، الله يعلم غيب ما كان:

- ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٩﴾ [إبراهيم: 9]

وهو (كما يعلم ما كان) يعلم ما سيكون:

- ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ٢٤﴾ [الحجر: 24]
- ﴿۞يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١٠٩﴾ [المائدة: 109]
- ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾ [الأنعام: 59]
- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾ [لقمان: 34]
- ﴿۞إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ٤٧﴾ [فصلت: 47]
- ﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ٦٣﴾ [الأحزاب: 63]
- ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٦٥﴾ [النمل: 65]
- ﴿وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ٧٥﴾ [النمل: 75]
- ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٧﴾ [الأعراف: 187]
- ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ٨ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ٩﴾ [الرعد: 8-9]

- ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٩﴾ [إبراهيم: 9]
- ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ٢٤﴾ [الحجر: 24]

- ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧٠﴾ [الحج: 70]
- ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٦﴾ [الفرقان: 6]

- ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [العنكبوت: 52]
- ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [الحجرات:16]
- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحجرات: 18]
- ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [سبأ:2]
- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: 4]
- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [فاطر: 11]
- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: 7]
- ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾﴾ [ق: 4]
- ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الزخرف:85]

إنّ المدقق في هذه السياقات القرآنية جميعها يجد حقيقة جلّية لا لبس فيها مفادها أن جميع الآيات السابقة تتحدث عن الأشياء، ولا تتحدث عن ما يفعله البشر. فالله يعلم مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ، وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ، و عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ، وهو كذلك يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ، وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا، وهكذا، وهذه جميعها تقع ضمن دائرة الأشياء التي أحاط الله بها علما، لهذا نخلص إلى نتيجة مفادها أن علم الله بالغيب يتعلق بالأشياء، أما ما يخص ما سيفعله البشر عن محض اختيار منهم (ولم يصبح بعد جزءاً من الأشياء) فالله لا يعلمه.

وهنا قد يرد البعض بالقول ولكن الله يعلم ما نخفي وما نعلن، أليس كذلك؟

الله يعلم السر والجهر

نعم، الله يعلم ما نخفي وما نعلن، ما نبدي وما نكتم، ويعلم سرنا وجهرنا، ويعلم سرنا ونجوانا:

- ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: 33]

- ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٢٩﴾ [النور: 29]
- ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٧٦ أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٧﴾ [البقرة: 76-77]
- ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩﴾ [النحل: 19]
- ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ٢٣﴾ [النحل: 23]
- ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٦﴾ [يس: 76]
- ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ٦١﴾ [المائدة: 61]
- ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٩٩﴾ [المائدة: 99]
- ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ٣﴾ [الأنعام: 3]
- ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ٧٨﴾ [التوبة: 78]
- ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾ [إبراهيم:38]
- ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ٧﴾ [طه: 7]
- ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ١١٠﴾ [الأنبياء: 110]
- ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ٢٥﴾ [النمل:25]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١﴾ [الممتحنة: 1]
- ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤﴾ [التغابن: 4]
- ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ٧﴾ [الأعلى: 7]
- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ٢٦﴾ [محمد:26]

نعم، هذه أمور تتعلق بالبشر ويعلمها الله، ولكن ألم تلاحظ – عزيزي القارئ- أن جميع هذه السياقات تتحدث عن أمور قد حصلت فعلاً؟ وهنا نود التميز بين نوعين من العلم الخاص بالبشر:

a. علم يتعلق بما حصل فعلاً
b. علم يتعلق بما لم يحصل بعد

إننا نزعم القول أن الله قد أحاط علمه بالنوع الأول من العلم المتعلق بالبشر، وهو ما قد حصل فعلاً، لكن علم الله لا يحيط بأمور الناس التي لم تكن قد حصلت بعد (أي لم تك شيئاً بعد)، وربما لهذا يُحْدِثُ الله أموراً معينة ليستجليها ويعلمها، ولنعيد هنا بعض الآيات السابقة لتوضيح الفكرة:

- ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ۝٣١﴾ [محمد: 31]

فالله يُحْدِثُ البلاء ليعلم المجاهدين والصابرين، فالأمر لم يتحقق بعد، أما علم الله بما نخفي وما نعلن فيكون محيطاً فقط بما حدث فعلاً، وليس بما لم يحدث بعد. وهنا سيرد الكثيرون بالقول أن هذا محض هراء، فالله يعلم ما نخفي وما نعلن، ما نسر وما نعلن، ما نبدي وما نكتم، فإن كان الله يعلم ما نسر وما نكتم، أليس ذلك من باب ما سيحصل؟

رأينا: كلا وألف كلا، إن ذلك من باب ما قد حصل فقط، ونحن لا نجد عناءً في إثبات صحة ما نزعم من كتاب الله تعالى نفسه، وما نحن بحاجة إليه هو إمعان التفكير في معاني هذه المفردات كما ترد في كتاب الله لا كما نظنها نحن البشر.

الكتمان

لتبيان الأمر فإننا نقدم الآيات الكريمة التالية لنثبت أن الكتمان مثلاً لا يمكن أن يتم إلا لشيء قد حصل، فبنو إسرائيل قد قتلوا نفساً وكتموا الأمر:

- ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٧٢﴾ [البقرة: 72]

وكيف سيكتم الناس الشهادة أو الحق إن لم تكن قد تحصلت لديهم؟

- ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٤٠﴾ [البقرة: 140]
- ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٤٦﴾ [البقرة: 146]
- ﴿۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٢٨٣﴾ [البقرة: 283]
- ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٧٦﴾ [آل عمران: 176]

وهل يستطيعون كتم بيّنات غير موجودة أصلاً؟

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ [البقرة: 159]

وكيف ستكتم المرأة ما في بطنها إن لم يكن موجوداً؟

- ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٢٨﴾ [البقرة: 228]

وكيف سيكتمون كتاباً إن كان غير موجود أصلاً؟

- ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ١٨٧﴾ [آل عمران: 187]

فلا يمكن أن نكتم شيئا إلا بعد أن نكون قد اوتيناه:

- ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٣٧﴾ [النساء: 37]

وما فائدة أن يكتم رجل من بني إسرائيل إيمانه إن لم يكن مؤمنا فعلاً؟

- ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ٢٨﴾ [غافر: 28]

نتيجة مفتراة: نحن نظن بناء على فهمنا لهذه السياقات القرآنية أن الكتمان يعني معرفة الأمر مع عدم البوح به، فالذين يكتمون ما أنزل الله من البينات يعرفونها ولكنهم لا يبوحون بها، والمطلقة لا يجب أن "تكتم" (أي لا تبوح) بما خلق الله في رحمها، ولم يبح ذاك الرجل المؤمن بإيمانه.

الإخفاء

ونحن نظن أن المنطق نفسه ينطبق على الإخفاء ("تخفون")، فعندما تخفي شيئاً فلا بد أن يكون موجوداً أصلاً:

- ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٧١﴾ [البقرة: 271]
- ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ [المائدة: 15]
- ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١﴾ [الأنعام: 91]

نتيجة: لا يستطيع الإنسان القيام بفعل الكتمان أو فعل الإخفاء ما لم يكن هناك شيء يمكن أن يكتم أو أن يخفى

ما الفرق بين الكتمان والإخفاء؟

ولكن يختلف الإخفاء عن الكتمان بأن الإخفاء – في ظننا- يتطلب استخدام وسيلة لتغطية الأمر، كما في قوله تعالى:

- ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ [النور:31]

فالمرأة تخفي زينتها ولكنها لا تكتمها،، فالكتمان (أي عدم البوح) لا يكفي وحده، ولا بد من استخدام حاجز أو وسيلة لتغطية الأمر، فالمرأة تستخدم جلبابها (أو ثوبها أو خمارها، سمّه ما شئت) لإخفاء زينتها

ولهذا نجد الروعة القرآنية في استخدام مفردة الإخفاء، لتتلخص بأمرين اثنين:

1. أنك عندما تريد أن "تخفي"، لا بد أن يكون هناك شيء لكي تخفيه، قال تعالى:

- ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٥٤﴾ [الأحزاب: 54]
- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٥﴾ [آل عمران: 5]
- ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾ [إبراهيم:38]

2. استخدم وسيلة لتغطية ذلك الأمر، وتتمثل تلك الوسيلة إما بإخفاء الشيء في النفس:

- ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾ [البقرة: 284]
- ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾ [آل عمران: 154]
- ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ٣٧﴾ [الأحزاب: 37]

أو في الصدر:

- ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٩﴾ [آل عمران: 29]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨﴾ [آل عمران: 118]
- ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر: 19]

السر

وينطبق المنطق على "السر"، فيسر الإنسان بشيء غير مادي:

- ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٣﴾ [التحريم: 3]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١﴾ [الممتحنة: 1]

ويتم السر في الصدر مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤﴾ [التغابن: 4]

أو في النفس:

- ﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾ [يوسف: 77]

ويتضح من السياقات القرآنية السابقة أنه عندما يستخدم الإنسان وسيلة لإخفاء الأمر يتم ذلك إما في النفس أو في الصدر.

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن الدقة تستلزم جلب انتباه القارئ إلى ملاحظة ربما تكون غريبة ولكنها برأينا مفيدة جداً تتمثل في ظننا بأن الأشياء لا تخفى في القلب، فلم يرد في كتاب الله أن الإنسان يخفي شيئاً في قلبه، وسنتعرض لتبعات هذا الأمر لاحقاً، وستكون هذه الملحوظة حينئذ هي محرك البحث في الحديث عن حدود علم الله.

من خلال الطرح السابق، نخلص إلى النتيجة التي مفادها أن علم الله يتمثل في أمرين اثنين:

⇐ (1)الإحاطة بالأشياء كلها مصداقاً لقوله تعالى بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ، و وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا، و أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا

⇐ (2) الإحاطة بما صدر عن الإنسان من أفعال سواء أعلنها الإنسان أو كتمها، أظهرها أو أخفاها، أبداها أو أسرها.

وهذا المعنى الأخير واضح من مجالات علم الله، فالله يعلم ما نفعل:

- ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٩١﴾ [النحل: 91]
- ﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٧٠﴾ [الزمر: 70]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٤١﴾ [النور: 41]
- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٢٥﴾ [الشورى: 25]

وهو يعلم ما نعمل:

- ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٦٨﴾ [الحج: 68]
- ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨٨﴾ [الشعراء: 188]

وهو يعلم ما نصنع:

- ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ٤٥﴾ [العنكبوت: 45]

وهو يعلم ما نقول:

- ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ١٠٤﴾ [طه: 104]
- ﴿قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٤﴾ [الأنبياء: 4]
- ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ٤٥﴾ [ق: 45]

وهو يعلم ما نسمع:

- ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ٤٧﴾ [الإسراء: 47]

وهو يعلم ما نصف:

- ﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾ [يوسف: 77]
- ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ٩٦﴾ [المؤمنون: 96]

وهذه أفعال تكون قد صدرت جميعها عن الإنسان سواء أسرها أو كتمها، أخفاها أو أظهرها، أبداها أو أعلنها.

السؤال: ما الجديد في هذا الطرح؟ أو كيف يختلف هذا الطرح عن كل ما سبقه؟

افتراء من عند أنفسنا: إننا نزعم القول أنّ علم الله (وإن أحاط بكل شيء علماً و بما عمل الإنسان) لا يحيط بما لم يصدر عن الإنسان من أفعال (أعمال) بعد، فما لم تفعل وما لم تعمل وما لم تصنع وما لم تقل وما لم تسمع وما لم تصف بعد لا يحيط الله به علماً ولا يعلمه. كلام خطير خطير خطير، أليس كذلك؟

نعم، ولكننا نود فقط أن نجلب انتباه القارئ إلى سؤالين اثنين:

⇐ أولهما، ما المقصود "بالعلم" كما يرد في كتاب الله؟
⇐ وثانيهما، كيف يتم العلم؟

ما المقصود بالعلم؟

إن المتتبع للسياقات القرآنية يجد أن العلم يعنى حصول المعرفة بأمر موجود من ذي قبل، فعلى سبيل المثال عندما تفضل الله تعالى على آدم "بعلم الأسماء" في بداية الخلق لا شك كان ذلك العلم موجودا قبل أن يعلمه الله لآدم:

- ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة: 31]

وبتدبر الآيات الكريمات التالية نجد أنّ العلم لا يتم إلا بالنقل، فالعلم لا يأتي من فراغ، بل لا بد من وجوده مسبقاً ليتم بعد ذلك نقله من .... إلى... . فالإنسان يولد لا يعلم شيئاً، مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: 78]

وبعدها يبدأ باكتساب العلم، وهو ما يتحصل لديه من كل مصادر المعرفة التي تحيط به، وأعظم تلك المصادر ما يتلقاه الإنسان من ربه مباشرة:

- ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف: 65-66]

أما ما يتلقاه من المصادر الأخرى فقد تكون غير صادقة، وبالتالي قابلة للخطأ والصواب، فالمعرفة المتحصّلة من العلم البشري مهما عظمت تبقى قابلة للتعديل مع الوقت، ولكن المعرفة المتحصلة من المصدر الإلهي فهي غير قابلة للتبديل أو التعديل لأنها معرفة صحيحة، مطلقة الحقيقة.

ونحن نزعم القول أنه لا ترد السياقات القرآنية الخاصة بالعلم إلا بشيء قد حصل، ولنعمل التفكير في الآيات التالية

- ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ [محمد: 30]
- ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الكهف: 19]
- ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة: 197]
- ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾ [البقرة: 270]

- ﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾ [آل عمران: 36]
- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٦٠﴾ [الأنعام: 60]
- ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ١٢٤﴾ [الأنعام: 124]
- ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٦٠﴾ [الأنفال: 60]
- ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ ١٠١﴾ [التوبة: 101]

ألا تدل هذه السياقات القرآنية على أن علم الله (الخاص بما يفعله البشر) قد أحاط بما كان قد حصل فعلا؟ وقد يرد البعض على الفور بالقول ولكن الله يعلم المصلح والمفسد والمؤمن والكافر، الخ.، مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ٥٣﴾ [الأنعام: 53]
- ﴿قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٥٨﴾ [الأنعام: 58]
- ﴿وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤٠﴾ [يونس: 40]
- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١١٧﴾ [الأنعام: 117]
- ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ ١١٩﴾ [الأنعام: 119]
- ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٤٢ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٤٣ لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ٤٤﴾ [التوبة: 42-44]
- ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٥٦﴾ [القصص: 56]

- ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ۝٨٤﴾ [الإسراء: 84]
- ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝٤٩﴾ [الحاقة: 49]
- ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ۝١٩﴾ [محمد:19]
- ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٢٠﴾ [البقرة: 220]

ألا يعني ذلك أن الله قد علم بهم قبل أن يهتدوا أو يؤمنوا أو يعتدوا، وهكذا؟ نقول كلا، فالمصادر وصيغ التفضيل وأسماء المفاعيل (الفاعل والمفعول) في اللغة العربية مجردة من عنصر الزمن كما يعلم الجميع، فعندما تقول- مثلاً- فلان مؤمن، فذاك لا يشير إلى زمن إيمانه، فلمعرفة زمن ذلك الإيمان لابد من وجود قرينة لفظية أو سياقية توضح ذلك. ولنطرح المثال التالي لتوضيح الصورة:

- ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝٤٢ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٤٣ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ۝٤٤﴾ [التوبة: 42-44]

فهل تدل لفظتي "الكاذبون" في الآية 42 و "بالمتقين" في الآية 44 على الزمن الماضي أم الحاضر أم المستقبل؟ وبكلمات أخرى هل نفهم من الآية الكريمة أن علم الله يتمثل بما كان أم بما يكون أم بما سيكون من أمر الفئتين؟

رأينا: لا شك أن الآية بمجملها تتحدث عن علم الله بحالهم لما كان من أمرهم وما هو كائن نتيجة لذلك، ولكنها لا تتحدث عن استباق علم الله لحالهم، فالله قد علم أنهم كاذبون لما صدر منهم من أفعال (لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ)، فهم إذاً لم يخرجوا مع النبي وبالتالي ثبت أنهم من الكاذبين، فاستحقوا أن ينعتوا إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ، وعلم كذلك بحال المتقين لما صدر منهم من أعمال (لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ).

وتتجلى الصورة بشكل لا لبس فيه عندما ترد هذه المعاني على صيغ الأفعال التي تدل على الزمن، ولنتدبر مثل هذه المعاني في سياقات أخرى:

- ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ۝٣٠﴾ [النجم: 30]
- ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ۝٣٢﴾ [النجم: 32]

فعندما نتدبر مفردات ضَلَّ و اهْتَدَىٰ و اتَّقَىٰ في الآيات السابقة نجد أنّ الله يعلم من ضل (وليس من سيضل) وهو أعلم بمن اهتدي (وليس من سيهتدي) وهو أعلم بمن اتقى (وليس من سيتقي)، وهكذا.

وتتضح الصورة أكثر عند اجتماع الفعل مع المصدر أو اسم الفاعل في الآية الواحدة:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾ [القصص: 85]
- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾ [القلم: 7]
- ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: 125]

فهل المقارنة في قوله تعالى (قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) بين من جاء بالهدى ومن سيضل أم بين من جاء بالهدى ومن ضل؟ وهل المقارنة في قوله تعالى (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) بين من ضل ومن سيهتدي أم بين من ضل ومن اهتدى؟!

افتراء من عند أنفسنا: نستنتج بناء على فهمنا لهذه السياقات القرآنية أن علم الله بالمهتدين والمتقين والمؤمنين، والمنافقين والكافرين، الخ. هو علم بما كان من أمرهم وليس بما سيكون عليه حالهم. وبكلمات بسيطة فإننا نقول أن الله يعلم ما كان من أمرهم من الإيمان والهدى والضلالة ولكنه لا يعلم بما سيكون من أمرهم من الإيمان والهدى والضلالة.

تبعات هذا الظن

⇐ **أولاً**: ربما بهذا الفهم يمكن تجلية معنى الخلق وسبب الحساب والعقاب، لأننا نظن أن الله لم يُعِد مسبقاً مسرحية هزلية محتومة الأحداث ومحسومة النتائج.

⇐ ثانياً: ربما بهذا الفهم تتجلى أفضلية الناس على بقية الخلق. ومعنى الخلافة وحقيقة التسيير والتخيير.

ولكن قبل الولوج في خضم تلك المجالات نجد لزاماً أن نحاول طرح السؤال الكبير التالي: ما الذي يعلمه الله وما الذي لا يعلمه؟ ولماذا؟

ما الذي لا يعلمه الله؟

افتراء من عند أنفسنا: إننا نعتقد أن الجواب على هذا التساؤل الكبير يكمن في مكان وجود المعلومة. ولكن كيف ذلك؟

رأينا: نحن نعتقد أن العلم المتعلق بالإنسان مكنون في مواقع أربعة لدى الإنسان:

⇐ (1) في قلبه، قال تعالى:

• ﴿۞ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ١٨﴾ [الفتح: 18]

⇐ (2) في صدره، قال تعالى:

• ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٤﴾ [النمل: 74]

⇐ (3) في نفسه، قال تعالى:

• ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ٢٥﴾ [الإسراء: 25]

⇐ (4) من بين يديه ومن خلفه:

• ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦﴾ [الحج: 76]

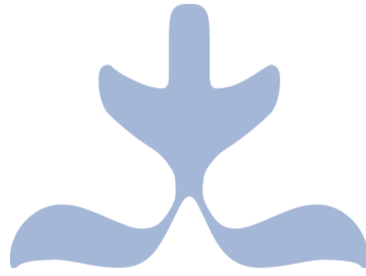
ونحن نفتري الظن أن علم الله بأمر الإنسان مرتبط بشكل كبير بمكان وجود المعلومة، وما هو مطلوب هو أن نمعن التفكير بما ورد في كتاب الله بكيفية علم الله بما لدى الإنسان في كل موقع من هذه المواقع الأربعة، ولنبدأ بها الواحدة تلو الأخرى، ونحن نفهم الموضوع على النحو التالي:

افتراء من عند أنفسنا: إن أول ما تتولد المعلومة يكون محلها في القلب، ثم تنتقل بعدها إلى الصدر ومن ثم إلى النفس وأخيراً تظهر بين يدي الإنسان ومن خلفه.

وهذا بالضبط ما سينقلنا إلى الشق الآخر من الموضوع وهو موضوع جدلية القلب والعقل

وللحديث بقية

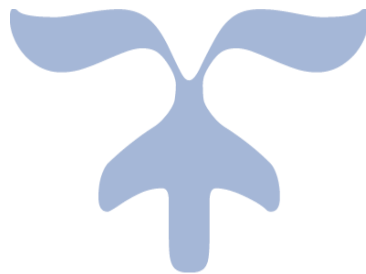
دعاء: أسأل الله رب أن يؤتيني من لدنه علماً لا ينبغي لأحد غيري إنه هو السميع العليم



هل لعلم الله حدود؟

الجزء الثالث

جدلية القلب والعقل(2)



الجزء الثالث: جدلية القلب والعقل(2)

لقد زعمنا في الجزء السابق أن علم الله ينقسم إلى نوعين:

1. علم الله بالأشياء، وقد أحاط الله به علما
2. علم الله بالإنسان، وهذا النوع من العلم ينقسم بدوره إلى نوعين من العلم:
   أ. علم بما صدر عن الإنسان
   ب. علم بما لم يصدر عن الإنسان من أفعال بعد

وكان الزعم الأخطر الذي افتريناه من عند أنفسنا يتمثل في ظننا بأن الله لا يعلم ما لم يصدر عن الإنسان من أعمال بعد. فبالرغم أن علم الله قد أحاط بمجمل الخيارات المتوافرة للإنسان، إلا أنه لا يعلم أي من هذه الخيارات سيختارها الشخص عن محض إرادة منه مستقلة عن إرادة خالقه.

وقد زعمنا في نهاية الجزء السابق أنّ علم الله بأمر الإنسان مرتبط بشكل كبير بمكان وجود المعلومة، وقد بينّا أن المعلومة ممكن أن تتوافر عند الإنسان في أربعة أماكن رئيسة وهي (1) قلبه، و (2) صدره، و(3) نفسه، و(4) بين يديه وخلفه. وهذا بالضبط ما نقحم أنفسنا فيه هنا محاولين – بحول الله وتوفيقه- تبيان الفرق في هذا الجزء.

لذا فالله أسأل أن ينفذ مشيئته لي الإحاطة بشئ من علمه لا ينبغي لأحد غيري، إنه هو السميع البصير.

أما بعد،

إننا نظن أن ما هو مطلوب منا هو أن نمعن التفكير بما ورد في كتاب الله بكيفية علم الله بما لدى الإنسان في كل موقع من هذه المواقع الأربعة، ولنبدأ بها الواحدة تلو الأخرى، ونحن نفهم الموضوع –كما ذكرنا سابقاً- على النحو التالي: إن أول ما تتولد المعلومة يكون محلها في القلب، ثم تنتقل بعدها إلى الصدر ومن ثم إلى النفس وأخيراً تظهر بين يدي الإنسان ومن خلفه.

كيفية علم الله لما في القلب

⇐ أولاً: نحن نظن – بادئ ذي بدء- أن القلب هو أداة التفكير لدى الإنسان مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: 179]

فلربما لا أحد يشك أن الأرجل هي أداة المشي وأن الأيدي هي أداة البطش وأن العيون هي أداة البصر وأنّ الآذان هي أداة السمع، وهكذا:

- ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ [الأعراف: 195]

ملحوظة: ما دام أن الأيدي هي أداة البطش، نستطيع أن نخلص إلى القول أن موسى قد استخدم يده عندما همّ أن يصرع الرجل الذي من عدوه مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [القصص: 19]

ولكن لِمَ يشك البعض (نحن نتساءل فقط) بأن القلب- على وجه الخصوص- هو أداة التعقل، فلو استعرضنا ألفاظ "التعقل" في القرآن الكريم لوجدناها مرتبطة ارتباطاً لا انفكاك فيه مع القلب، وليس أدل على ذلك من قوله تعالى:

- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: 46]

وتؤكد الآية الكريمة أن القلب (أداة التعقل) موجود في الصدر:

- ﴿... فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: 46]

وقد تعارف الناس أن مضخة الدم هي ما يعرف باسم القلب، ولكننا نزعم أن القلب هو فقط عضو التفكير الموجود في أعلى مضخة الدم وهو المسئول عن إرسال الإشارات والأوامر إلى الدماغ الذي يخاطب بدوره أعضاء الجسم لتنفيذ أوامر القلب، وهذا الفهم هو ما نستنبطه من قوله تعالى:

- ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾﴾ [الأحزاب: 10]
- ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر:18]

نستنتج إذاً أن القلب هو العضو الأقرب إلى الحنجرة خصوصاً إذا ما تحرك في حالة الخوف أو الفزع أو حتى الفرح الشديد.

⇐ ثانياً: ومما لا شك فيه –عندنا- أن الإيمان والكفر محله القلب، قال تعالى:

- ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾ [النحل: 106]
- ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٩٣﴾ [البقرة: 93]
- ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٤١﴾ [المائدة: 41]

وكذلك النفاق، فإن محله القلب:

- ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ٦٤﴾ [التوبة: 64]
- ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٤٩﴾ [الأنفال: 49]
- ﴿۞ وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٧٦ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ٧٧﴾ [التوبة: 75-77]
- ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧﴾ [آل عمران: 167]
- ﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ٦٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ٦٣﴾ [النساء: 62-63]
- ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ١٢﴾ [الأحزاب: 12]

وكذلك الريبة والشك فإن محلهما القلب:

- ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ٤٥﴾ [التوبة: 45]
- ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١١٠﴾ [التوبة:110]
- ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ٤٩ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٥٠﴾ [النور: 48-50]

وفي القلب أيضاً يقع الزيغ:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾ [آل عمران: 7]
- ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨﴾ [آل عمران: 8]
- ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧﴾ [التوبة: 117]

وكذلك المرض:

- ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ١٠﴾ [البقرة: 10]
- ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢﴾ [الأحزاب: 32]
- ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢﴾ [المائدة: 52]
- ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۢ بَعِيدٖ ٥٣﴾ [الحج: 53]
- ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ٤٩ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٥٠﴾ [النور: 48-50]
- ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٤٩﴾ [الأنفال: 49]
- ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ١٢﴾ [الأحزاب: 12]

- ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ٦٠﴾ [الأحزاب: 60]

وبالمقابل، فالقلب هو محل الطمأنينة:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٦٠﴾ [البقرة: 260]
- ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦﴾ [آل عمران: 126]
- ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ١١٣﴾ [المائدة: 113]
- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد: 28]

والقلب هو محل الهداية:

- ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١١﴾ [التغابن: 11]

⇐ ثالثاً: وبناءً على كل ما سبق، فقد جعل الله الحساب على ما في قلب الإنسان:

- ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٢٥﴾ [البقرة: 225]
- ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ٥﴾ [الأحزاب: 5]
- ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾ [الشعراء: 88-89]

ولما كان الأمر كذلك، كان لزاماً على الله أن يخرج ما في قلوبهم:

- ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ٢٩﴾ [محمد: 29]
- ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ٦٤﴾ [التوبة: 64]

نتيجة: نحن نظن أن الله لا محالة مخرج ما في قلوب الناس ليحاسبهم عليه، ولكن كيف يخرج الله ما في قلوب العباد؟

جواب: يكون ذلك بالتمحيص:

- ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: 154]

ويكون ذلك بالفتنة، وبهذا الفهم نعود إلى السياقات التي تتحدث عن أن الله يحدث الفتنة ليميز الخبيث من الطيب، ليعلم الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق، وهكذا:

- ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: 31]
- ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: 2-3]
- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: 142]
- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التوبة: 16]
- ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [آل عمران: 140]
- ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران: 166-167]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ [المائدة: 94]
- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد:25]
- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: 143]

افتراء من عند أنفسنا (1): نحن نظن أن الله سبحانه يحدث الفتنة لاستخراج المكنون الحقيقي لما في قلب الإنسان.

افتراء من عند أنفسنا (2): متى خرج ما في قلب الإنسان تبين الله ما هو، فأصبح الله يعلمه حتى وإن حاول الإنسان إخفاءه في صدره أو في نفسه:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨﴾ [آل عمران: 118]
- ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر: 19]
- ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ٣٧﴾ [الأحزاب: 37]

وهنا نجد من الضروري إعادة الآيات القرآنية التي تتحدث عن علم الله لما في قلب الإنسان ومقارنة ذلك مع علم الله لما في صدر الإنسان أو نفسه أو حتى ما بين يديه وخلفه. فعند الحديث عن ما بين يدي الإنسان وما خلفه جاء علم الله مطلق:

- ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ [البقرة: 255]
- ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ١١٠﴾ [طه: 110]
- ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨﴾ [الأنبياء: 28]
- ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦﴾ [الحج: 76]

وكذلك عند الحديث عن علم الله لما في نفس الإنسان:

- ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٣٥﴾ [البقرة:235]

- ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦﴾ [المائدة: 116]
- ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١﴾ [هود: 31]
- ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ٢٥﴾ [الإسراء: 25]
- ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦﴾ [ق: 16]

وكذلك عند الحديث عن ما في صدر الإنسان:

- ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٤﴾ [الشورى: 24]
- ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٩﴾ [آل عمران: 29]
- ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٥﴾ [هود: 5]
- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٤﴾ [النمل: 74]
- ﴿وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٦٩﴾ [القصص: 69]
- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾ [العنكبوت: 10]
- ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر: 19]
- ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤﴾ [التغابن: 4]

ولكن تأتي المفارقة العجيبة عند الحديث عن علم الله لما في قلوب الناس، فلا ترد في كتاب الله عبارة مثل "والله أعلم بما في قلوب العالمين" أو عبارة مثل " والله يعلم ما تخفي القلوب" أو عبارة والله أعلم بما في قلوبكم"، أو عبارة "والله عليم بذات القلوب"، وهكذا. وجل ما ورد في كتاب الله عن علمه لما في القلوب كان محدداً لفئة من الناس بذاتها، فجاءت الصيغة على نحو يعلم (الفعل المضارع) أو عَلِمَ (الفعل الماضي):

- ﴿۞ تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا ٥١﴾ [الأحزاب: 51]
- ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦٢ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٣﴾ [آل عمران: 62-63]

لاحظ - عزيزي القارئ- كيف تأتي صيغة علم الله مطلقة عندما ترتبط مع الصدور أو النفوس أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ، وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ، ولا ترد مثل هذه الصيغ عند ارتباط علم الله لما في قلوب الناس. ولكنها تأتي للحديث عن واقعة بعينها بصيغة الفعل الماضي:

- ﴿۞ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ١٨﴾ [الفتح: 18]

فلقد تم علم الله لما في قلوب تلك الفئة بعد المبايعة

أو في زمن محدد:

- ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٦٦﴾ [الأنفال: 66]

افتراء خطير جداً: إن مراد القول هنا هو أن علم الله لما في القلوب ليس علماً مطلقاً.

والمفارقة الغريبة جداً التي ربما لا يتقبلها الناس بيسر وسهوله، ولكنها تتردد في الأذهان، وتسلب العقول، وتجنب أهل العلم الخوض فيها (ربما بسبب الحرج الذي سيقعون به) هي وجود ما يدل على التشكيك بعلم الله في مواطن معينه:

- ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٦٤﴾ [النور: 63-64]
- ﴿۞ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ١٨﴾ [الأحزاب: 18]

- ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: 33]

والسؤال المشروع هو: لماذا جاءت صيغة "قَدْ يَعْلَمُ" إذا كان علم الله مطلقا؟

رأينا: نحن نظن أن الكثيرين من أهل الدراية ما انفكوا عن ليّ أعناق النصوص ليضفوا على الأمر تصوراتهم العقائدية المسبقة، فهم قد قالوا أنّ "قد" التي تفيد التشكيك مع الفعل المضارع في العربية كلها لا تعمل على ذلك النحو إن جاءت مقترنة بعلم الله.

تفنيد الفكر السائد

سؤال: إذا كان الحال كذلك، فلِمَ ترد "قد" مع الفعل الماضي؟ فهل يحتاج الله أن يؤكد لنا أنه يعلم؟!

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾ [الأحزاب: 50]

فهل فعلاً تفيد قد التشكيك إذا دخلت مع الفعل الماضي سواء كان الحدث متعلقاً بالله نفسه أو بالناس بينما تفيد التشكيك إذا دخلت مع الفعل المضارع وكان الحدث متعلقاً بالناس وليس بالذات الإلهية؟ أليست هذه انتقائية غير مبررة في فهم القواعد (كما يحب أهل اللغة أن يسمونها)؟

رأينا:نحن نرى أن عنصر التشكيك موجود مع الفعل المضارع الذي يصاحبه قد بغض النظر عن ماهية صاحب الفعل. لذا نحن نفهم أن علم الله كما تصوره الآيات القرآنية التالية غير مطلق:

- ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾ [النور: 63-64]
- ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [الأحزاب: 18]
- ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: 33]

السؤال: لماذا؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن علم الله غير مطلق في هذه الأحداث لأنها أحداث لازالت تحاك في القلب وهي لم تخرج بعد من القلب لتصبح في علم الله المطلق. لذا فإن علم الله مطلق لما في النفوس ولما في الصدور ولما بين أيدينا وما خلفنا ولكن علم الله غير مطلق لما في قلوبنا.

ونعيد السؤال التالي لتبيان الافتراء التي نحاول تسويقه هنا: لماذا علم الله مطلق لما في النفوس والصدور وما بين أيدي الناس وخلفهم بينما علم الله غير مطلق لما في قلوب الناس؟

جواب: راقب عزيزي القارئ ما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾ [الأنفال: 70]

ألا تدلنا هذه الآية الكريمة أن عطاء الله لنا بخير مما أخذ منا ومغفرته مشروطتان بأن يعلم الله أولاً أن في قلوبنا خيرا؟ لماذا ينتظر الله أن يعلم أولاً لكي يؤتينا خيراً مما أخذ منا أو ليغفر لنا؟ وكيف يحصل علم الله لما في قلوبنا؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن علم الله لما في قلوبنا يتحقق بإحداث الابتلاء. فعندما يحدث الله الابتلاء والفتنة والتمحيص لا يكون ذلك لإخراج ما في نفوس أو صدور الناس وإنما لإخراج ما في قلوبهم.

وهنا نطرح السؤال التالي: لماذا لا يحدث الله الابتلاء لإخراج ما في صدور الناس أو ما في نفوسهم؟ الجواب لانّ الله يعلمه، وما دام علم الله قد أحاط به فلا حاجة لتبيانه أكثر:

- ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٩﴾ [آل عمران: 29]

فليس لله حاجة أن يمحّص ما في صدور العالمين لأن علمه قد أحاط بذلك سواءً أبداه الإنسان أو أخفاه. فنحن نفهم أن الصدر أو النفس ليستا بأكثر من حاجز أو حاجب، ولا أخال أن حاجباً أو أن حاجزاً قد يصد أو يحدد علم الله. ولكن هل القلب حاجز كالصدر أو النفس؟

جواب: لا أظن ذلك، فالقلب أكبر من كونه حاجز، فما هو يا ترى؟

رأينا: نحن نظن أن القلب هو كتلة واحدة متماسكة شديدة الصلابة مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٧٤﴾ [البقرة:74]
- ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣﴾ [المائدة: 13]

فالقلب هو إذاً بصريح اللفظ القرآني أشد قسوة من الحجارة، وهو مقفل محكم الإغلاق، قال تعالى:

- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمد: 24]

وأنا على يقين أنه لو بحث علماء التشريح عن تلك الكتلة التي تفوق في صلابتها الحجارة داخل صدر الإنسان لوجدوها.ولأنه كينونة مقفلة، لا يستطيع أحد الولوج إلى داخله، فقد جاءت معظم الآيات القرآنية التي تتحدث عن القلب لتتعامل معه من الخارج (بدليل حرف الجر على):

- ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧﴾ [البقرة: 7]
- ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾ [البقرة: 155]
- ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٥﴾ [الأنعام: 25]
- ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ ٤٦﴾ [الأنعام: 46]
- ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠١﴾ [الأعراف: 101]
- ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ٤٦﴾ [الإسراء: 46]
- ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ١٤﴾ [الكهف: 14]
- ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٥٧﴾ [الكهف: 57]
- ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٩﴾ [الروم: 59]
- ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ١٦﴾ [محمد: 16]
- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٣﴾ [المنافقون: 3]
- ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾ [المطففين: 14]
- ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤﴾ [الشعراء: 193-194]
- ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠﴾ [القصص: 10]

- ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥﴾ [غافر: 35]
- ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٤﴾ [الشورى: 24]
- ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣﴾ [الجاثية: 23]

فلا أحد يستطيع إذاً الدخول إلى القلب، وحتى ربنا عز وجل عندما يصور إدخاله شيئاً ما إلى قلب الإنسان يكون ذلك فقط عن بعد، ولنتدبر الآية الكريمة التالية:

- ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ١١ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ١٢﴾ [الأنفال: 11-12]

وهنا أطلب من القارئ الكريم التفكر في قوله تعالى "سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ"، ليجد أمرا نظن أنه غاية في الغرابة وهو أن الله نفسه لا يدخل إلى قلب الإنسان وإنما يبقى بعيداً عنه، والدليل على ما زعمنا هذا موجود في الآية الكريمة نفسها، وهو ما تحمله مفردة "سَأُلْقِي" من معنى في ثناياها، فالله عندما يريد إدخال شيء إلى قلب الإنسان يتم ذلك عن بعد بطريقة الإلقاء، فالإلقاء لا يمكن أن يتم إلا إذا كان الملقي (الفاعل) بعيد بمسافة معقولة عن مكان الإلقاء، فها هي أم موسى تلقي وليدها في اليم:

- ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧﴾ [القصص: 7]

وها هو موسى يلقي عصاه:

- ﴿فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ١٠٧﴾ [الأعراف: 107]

وها هو موسى عليه السلام يلقي الألواح بعد عودة من لقاء ربه ليأخذ برأس أخيه:

- ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠﴾ [الأعراف: 150]

وها هم ملائكة العذاب يلقون من يستحق العذاب في جهنم:

- ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٤﴾ [ق: 24]

وها هم أخوة يوسف يتخذوا قرارهم بإلقاء أخيهم في غيابت الجب:

- ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۝١٠﴾ [يوسف:10]

ولنتوقف قليلاً مع هذه الصورة الأخيرة على وجه التحديد لتوضيح فكرة الإلقاء شيئاً قليلاً، فهل يمكن أن يقوم أخوة يوسف بفعل "الإلقاء" لو كانوا متواجدين في نفس المكان مع أخيهم في داخل تلك غيابت الجب (أي بئر الماء كما يحب أهل التفسير أن يسمونه)؟

نحن نعتقد أن غيابت الجب ليس بئر ماء كما قال المفسرون، للتفصيل أنظر مقالتنا "ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته: باب التماثيل)

رأينا: كلا وألف كلا، فحتى يكون ذلك إلقاءً لابد أن يكونوا هم خارج "البئر" ومن ثم يلقوا بأخيهم إلى داخله، ولو تصورنا عملية الإلقاء على تلك الشاكلة (ولله المثل الأعلى) لقلنا أن الله لا شك يكون خارج القلب عندما يلقي في داخله الرعب، ولكن الله لا يدخل إلى داخل قلب الإنسان لينظر ما يحاك في داخلها.

والجميل في التصوير القرآني أن الشيطان لا يستطيع كذلك الولوج إلى قلب الإنسان، لذا فعندما يقوم الشيطان بعمله (وهي الوسوسة) فإن ذلك يتم على النحو التالي:

- ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥﴾ [الناس: 4-5] كمكامكتبووفلنت

لذا فعندما وسوس الشيطان لآدم وزوجه، لم يدخل إلى قلبهم لأن وسوسة الشيطان لا تكون في الصدر فلا تتجاوزه إلى أبعد من ذلك:

- ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝٢٠﴾ [الأعراف: 20]

فالله سبحانه وتعالى يعلم وسوسة الشيطان لأن محلها الصدر، وهو كذلك يعلم وسوسة النفس:

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [ق: 16]

فما يحدث في صدر الإنسان وما يحدّث الإنسان به نفسه فذاك لا شك واقع في علم الله، لأن النفس أو الصدر ليست أكثر من حاجز أو حاجب تخفي فيها المعلومة بعد أن تكون قد تشكلت في القلب وخرجت منه. ويبقى هنا أن طرح السؤال الكبير التالي: هل هناك آية كريمة واحدة تتحدث عن علم الله لما يحدّث في قلب الإنسان؟

رأينا: نحن ننتظر من أحد أن يدلنا عليها، وله من الله الجزاء ومنا الشكر والثناء.

تبعات هذا الافتراء

ربما لهذا نستطيع أن نفسر لم يحدث الله البلاء والفتنة والتمحيص لما في قلوب العالمين،فما هو سبب الابتلاء والفتنة والتمحيص؟

افتراء خطير جداً جداً: لأن الله لا يعلم ما في قلب الإنسان، وحتى يعلم الله ما يحيك الإنسان في قلبه فلابد من اختباره وتمحيصه وابتلاءه ومن ثم إخراجه، وهذا بالضبط ما نفهمه (نحن) من الآيات الكريمة التالية

- ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١﴾ [محمد: 31]
- ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣﴾ [العنكبوت: 2-3]

فعند ابتلاء الإنسان بالجهاد أو بالقرح أو حتى بتحويل القبلة التي كانوا عليها، تكون النتيجة أن يبين ما في قلب الإنسان فتتحصل المعرفة الإلهية لذاك العلم:

- ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾ [آل عمران: 142]
- أ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٦﴾ [التوبة: 16]
- ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧﴾ [آل عمران: 166-167]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٩٤﴾ [المائدة: 94]
- ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠﴾ [آل عمران: 140]
- ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢٥﴾ [الحديد:25]

- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: 143]

وعندما تحصل الفتنة للإنسان فإنه يخرج ما في قلبه ليسجل على الإنسان الدليل الدامغ على ما هو موجود فعلاً في قلبه، فلو لم يخرج الله ما في قلوبهم لما كفوا عن المجادلة، ولما افترق الناس إلى جنة أو إلى نار. ولننظر إلى الموقف التالي كما يصوره القرآن الكريم:

- ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [التوبة: 75]

فلو كان الله يعلم ما في قلوبهم لما احتاج أن يختبرهم، ولكن الله أخرج ما في قلوبهم عندما آتاهم من فضله:

- ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [التوبة: 76]

وكانت النتيجة الحتمية حصول المعرفة لما في قلوبهم:

- ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة:77]

وهذه –في ظننا- هي سنة الله في الكافرين:

- ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾ [محمد: 29]

والجميل أن الإنسان لا يمكن أن يكون مؤمناً وكافراً في قلبه في آن واحد، فالقلب إما أن يكون مؤمناً أو كافراً، مخلصاً أو منافقاً، قال تعالى:

- ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾ [الأحزاب: 4]

ثم لننظر إلى الموقف التالي الذي يحمل في ثناياه عتاباً ربانياً لنبيه، قال تعالى:

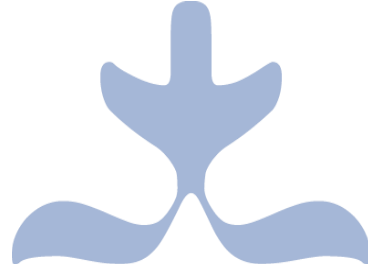
- ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة: 43]

فالله سبحانه وتعالى يعفو عن نبيه على ما بدر منه من عدم التيقن من صدق أو كذب تلك الفئة، والذي يحيّر الألباب – في رأينا- هو طرح التساؤل التالي: إذا كان الله يعلمهم ويعلم صدق قلوبهم أو كذبها قبل تمحيصها، فلم لم يخبر نبيه بهم دون الحاجة أن يتيقن النبي بنفسه من أمرهم؟ فما الحاجة أن يتبين النبي من ذلك الأمر إن أخبره الله بأمرهم؟ لاحظ - عزيزي القارئ- أنه بالرغم من العتاب الرباني للنبي بذلك إلا أنه لم يخبره من هو الصادق منهم أو الكاذب، وذلك لأن سنة الله هي على النحو التالي:

- ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ٢٩﴾ [محمد: 29]

نتيجة مفتراة: لا شك أن الله يبقي الإنسان في حالة ابتلاء إذا لم يخرج الإنسان حقيقة كل ما في قلبه، فإذا ما بقي الإنسان متكتماً على ما في قلبه لا يخرجه ليعلمه الله (بخصوص أي شيء في حياته) فلينتظر البلاء والفتنة من الله نفسه ليتم تمحيص ما في قلبه حتى يخرج على حقيقته، فيعلمه الله ويكون حينئذ دليلاً دامغاً على صدقه أو كذبه، إيمانه أو كفره، وهكذا.

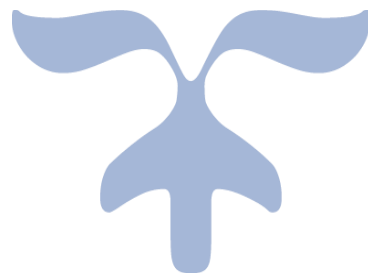
وللحديث بقية



هل لعلم الله حدود؟

الجزء الرابع

جدلية القلب والعقل (3)



الجزء الرابع: هل لعلم الله حدود؟ جدلية القلب والعقل (3)

لقد زعمنا في أن قلب الإنسان هو المكان الوحيد الذي لا يمكن لأحد أن يدخله، فالله سبحانه وتعالى يتعامل مع قلب الإنسان من الخارج، ويحدث البلاء لإخراج مكنون ذلك القلب، فإن كان ما فيه خيراً خرج خيراً، وإن كان غير ذلك خرج على تلك الشاكلة، وكل إنسان يُحاسَب على ما يخرج من قلبه، فالله لا يحاسب الناس على ما بقي مدفوناً في قلوبهم، ولكنه يحدث البلاء والفتنة ليخرج ما في القلوب، ويبدأ الحساب على ما يخرج منها، حتى وإن تم إخفاءه في الصدر أو في النفس، لأن الصدر أو النفس لا يحجبان علم الله، ولكنهما بكل تأكيد يحجبان علمنا نحن البشر. فنحن لا نستطيع أن نعلم ما يخفي إنسان ما في صدره أو في نفسه، ولا يحيط علمنا إلا بما يقوم الإنسان بفعله (أي بين يديه) أو ما يكون قد فعله من قبل (أي من خلفه).

افتراء من عند أنفسنا (1): نحن نفتري الظن أن علم الله يختلف عن علم الإنسان بحدود توافر المعلومة على النحو التالي:

علم الإنسان: لا يحيط إلا بما بين أيديهم وما خلفهم

علم الله: يحيط ب

1. لما في صدورهم
   - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨﴾ [آل عمران: 118]
   - ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر: 19]
2. لما في نفوسهم
   - ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٣٥﴾ [البقرة: 235]
   - ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾ [البقرة: 284]
   - ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ٣٧﴾ [الأحزاب: 37]
3. لما بين أيديهم وما خلفهم

- ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ [البقرة: 255]
- ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ١١٠﴾ [طه: 110]
- ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨﴾ [الأنبياء: 28]
- ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦﴾ [الحج: 76]

افتراء من عند أنفسنا (2) : أما العلم الذي لا يحيط به أحد (حتى الإله نفسه) فهو علم ما في قلوبهم

وذكرنا كذلك أن الشيطان لا يستطيع أن يدخل إلى قلب الإنسان وإنما يبقى عمله مقتصراً على الوسوسة التي تحدث في الصدر أو النفس:

- ﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥﴾ [الناس: 5]

هناك نوع أخر من الوسوسة وهي وسوسة النفس، قال تعالى:

- ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦﴾ [ق: 16]

ولهذا لا يستطيع الإنسان أن يقيم الحجة على الشيطان يوم القيامة في أنه هو (أي الشيطان) سبب المعصية، بل العكس تماماً، فالشيطان هو من سيقيم الحجة على العاصي المخالف لأمر ربه، لأن حياكة المعصية لا تحدث مع الشيطان، وإنما تحصل داخل قلب الإنسان الذي لا يستطيع الشيطان الولوج إليه، فليس للشيطان سبيل إلا على من كان في قلبه الاستعداد للمعصية، فمتى أخرجها من قلبه إلى صدره بادره الشيطان بالوسوسة، وبهذا الفهم نستطيع أن نتصور حجة الشيطان على العصاة المذنبين وهم جميعاً في نار جهنم:

- ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢﴾ [إبراهيم: 22]

نعم، الشيطان ليس سبب المعصية، وإنما هو المغذي لها بعد أن كانت قد أحيكت في القلب وفي النفس وخرجت إلى الصدر، فسبب المعصية هو قلب الإنسان ونفسه، فالشيطان لا يقوم بأكثر من دعوة الإنسان للمعصية بالوسوسة بالصدر، ولهذا لا يمكن أن يقع اللوم فيها على الشيطان، لأنه ببساطة ليس مسئولا عنها، فليس للشيطان سلطان على الإنسان قبل أن يبادر الإنسان بنفسه في ولاية الشيطان، مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: 98-100]

دعاء: اللهم إنا نعوذ بك أن نتولى (نحن) الشيطان ونعوذ بك من سلطان الشيطان علينا

فيتمثل سلطان الشيطان (على الذين هم به مشركون) بالدعوة فقط، فالإنسان العاصي هو من يتولى الشيطان أولا قبل أن يصبح للشيطان سلطان عليه، فإن لم يتولى الإنسانُ الشيطانَ لا يمكن أن يكون للشيطان سلطان عليه، فولاية الشيطان (التي يقوم بها الإنسان برغبة منه) تسبق سلطان الشيطان عليه، وكل ما يحتاجه الإنسان ليتخلص من ذلك السلطان هو أمر بسيط جداً، ألا وهو: الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، فنحن نعلم بصريح اللفظ القرآني أن كيد الشيطان ضعيف:

- ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: 76]

فالإستعاذة بالله من الشيطان كافية لدحره ورجوعه خاسئاً مهزوماً، ولكن عندما لا يكون عند الإنسان الاستعداد للاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، فهو يكون - بلا شك- ممن يتلون الشيطان مصداقاً لقوله تعالى: إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ، وهم بالتأكيد أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ، والذين يصبح للشيطان سلطان عليهم بعد ولايتهم هم للشيطان.

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن علم الشيطان يحيط بـ

1. بما بين أيديهم وما خلفهم
2. لما في صدورهم

ولكنه لا يتعدى إلى النفس أو إلى القلب

ولهذا نجد المؤمنين الذين فهموا هذه الحقيقة لا يحمّلوا الشيطان المسؤولية الأولى في وقوعهم في المعصية، وإنما حمّلوها أنفسهم، وما كان إقحام الشيطان في الموضوع إلا من باب تغذية المعصية التي وقعت في قلبهم أولاً وخرجت إلى نفوسهم ثانياً، وأخفيت في صدورهم ثالثاً، عندها فقط علم الشيطان بها فأخذ يوسوس للإنسان عما يجول في صدره، فها هو آدم وزوجه يعودوا إلى ربهم بالتوبة قائلين:

- ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: 22-23]

فبالرغم من وسوسة الشيطان، إلاّ أنهم حمّلوا أنفسهم مسؤولية المعصية، فصحيح أن الله سبحانه كان قد نهاهما عن إطاعة وسوسة الشيطان، إلا أنها لم تكن السبب الأول في الوقوع في المعصية، ولكن كانت نفسيهما (أو بكلمات أدق قلبيهما من قبل) هي المسئولة عن ذلك، بدليل أنهم أنفسهم أقروا بذلك بالقول: "قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا". فنحن نفهم أن مشكلة آدم في الأكل من الشجرة بدأت قبل أن يوسوس الشيطان لهما بالمعصية لأن الشيطان يستطيع أن يلج إلى صدر آدم، ولكنه بالتأكيد لم يكن يستطيع الولوج إلى قلب آدم ولا إلى نفسه، فما دام أنّ حياكة الأمر تتم في القلب قبل أن تنتقل إلى الصدر، يصبح من الطبيعي الافتراض أن أمر الأكل من الشجرة قد خالج قلب آدم قبل أن يدفعه الشيطان إليه.

وها هو ذا النون يدرك خطأ ما فعل فيعود إلى ربه تائباً بالقول:

- ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء: 87]

نعم، إنه يحمّل نفسه مسؤولية ما فعل، ولا يتحجج بالشيطان ليخلي مسؤوليته من الأمر.

وها هو موسى يفهم ما فعل، فيعود إلى ربه فوراً بالتوبة غير متعلل ولا متحجج بوسوسة الشيطان:

- ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦﴾ [القصص: 15-16]

صحيح أن موسى أقر بأن ذلك الفعل هو من عمل الشيطان، ولكنه لم يحمّل الشيطان مسؤولية فعلته تلك، بل كان على درجة كافية من الفهم والجرأة أن يتحمل تلك المسؤولية عندما قال "رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي"، ولم يقل مثلاً "ربي إن الشيطان قد ظلمني". فكما أنّ الظلم لم ينسب لله مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٧﴾ [آل عمران: 117]

نجد أن الله ينسب الظلم للإنسان نفسه، ولا نجد في كتاب الله نسبة الظلم إلى الشيطان إطلاقاً، فقد وردت فكرة ظلم الإنسان نفسه عشرات المرات في كتاب الله، وفي جميعها ينسب الله ظلم الإنسان للإنسان نفسه، فالإنسان هو من يظلم نفسه، نستعرض بعضها لتأكيد الفكرة التي نحاول تجليتها، قال تعالى:

- ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٥٧﴾ [البقرة: 57]

- ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾ [النساء: 153]
- ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [التوبة: 70]
- ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ [هود: 101]
- ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [النحل: 33]
- ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل: 61]
- ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [النحل: 118]
- ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ [الرعد: 6]
- ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت:40]
- ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الروم: 9]
- ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الزخرف: 76]

والدقة تستدعي القول أن الإنسان يظلم نفسه، لنطرح هنا التساؤل التالي: كيف يمكن أن نفهم أن الإنسان يظلم نفسه؟ وبكلمات أخرى، من هو الظالم ومن هو المظلوم؟ لاشك أن نفس الإنسان هي المظلومة، أليس كذلك؟ فمن الذي ظلمها؟ الإنسان، ولكن كيف يكون ذلك؟ إننا نؤكد أنه يجب التميز بين من يقوم بالظلم في الإنسان، ومن يقع عليه الظلم في الإنسان، وإننا نفهم الأمر على النحو التالي: إن قلب الإنسان هو الذي استقر الظلم فيه، فكانت النتيجة أن قلب الإنسان يظلم نفس الإنسان، وهذا يستدعي التميز بين نفس الإنسان المظلومة، وقلب الإنسان الظالم.

ولو راقبنا ما حصل في مثل هذه الحالات عندما بادر كل منهم بالإقرار بذنبه وتحمّل مسؤولية ما صنع، ومن ثم طلب المغفرة من الله على سوء ما صنعوا، نجد ملحوظا غاية في الجمال والروعة، ألا وهو: الاستجابة الربانية لهم بالغفران، فالله قد غفر لآدم وزوجه، وغفر لذي النون، وغفر لموسى على الفور، ونحن نفهم أنه لو أصرّ أي منهم على أن تلك المعصية كانت بسبب الشيطان لما كانت الاستجابة الربانية له بالإيجاب، لأنّ ذلك يعطي مؤشراً قوياً أن قلب ذلك الإنسان لازال يكابر ويعاند، وسنجد لاحقاً أن صلاح الإنسان أو فساده مرهون بحالة قلبه. ولكن كيف ذلك؟

قبل الولوج في هذه الجزئية نجد أنه من المفيد تلخيص النقاش السابق بالجدول التالي:

علم الله	علم الشيطان	علم البشر	العلم المكنون الذي لا يعلمه أحد
1. لما بين أيديهم وما خلفهم 2. لمافي صدورهم 3. لما في نفوسهم	⇐ لما بين أيديهم وما خلفهم ⇐ لمافي صدورهم	⇐ لما بين أيديهم وما خلفهم	لما في قلوبهم

الوسوسة

نحن نظن أن الدقة تستدعي تدبر مفردة الوسوسة كما ترد في كتاب الله، لنجد أن الوسوسة تصدر من جهتين اثنتين، وهما الشيطان والنفس، قال تعالى:

- ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠﴾ [الأعراف: 20]
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [ق: 16]

وكلاهما بهذه الوسوسة يأمر بالسوء، فالشيطان يأمر بالسوء والفحشاء:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝١٦٨ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝١٦٩﴾ [البقرة: 168-169]

وكذلك هي النفس في أغلب حالاتها:

- ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥٣﴾ [يوسف: 53]

ولكن يبقى السؤال الأهم هو: هل تلك الوسوسة ملزمة للإنسان؟

رأينا: كلا، بدليل أنها جاءت على شكل أمر، وفي هذا المقام نتوقف قليلاً لنشير إلى أن هناك (ربما) خطأ يقع فيه الكثير من الناس في فهم معنى "الأمر" كما يرد في كتاب الله، فالغالبية من الناس تظن أن الأمر يعني الإلزام، وهذا خطأ نظن أن من الواجب تصحيحه قبل أن نحاول فهم الكيفية التي يأمرنا الشيطان بها بالسوء والفحشاء وكيفية أن تكون النفس أمارة بالسوء.

السؤال: كيف يحدث الأمر؟

إننا نظن أن مفردة الأمر في كتاب الله لا تحمل في ثناياها معنى الإلزام، وإنما تحمل معنى التخيير فقط، فحتى الأمر الإلهي- على ما نظن- لا يعني الإلزام بأي حال من الأحوال، وبكلمات أخرى فإننا نزعم أنه حتى لو صدر الأمر من الله نفسه فإن ذلك لا يعني الإلزام وحصول الأمر كما أراده الله، وقد يستغرب البعض مثل هذا القول ظانين أننا نقدم رأياً شخصياً، فنقول كلا إن هذا ما يمكن أن يفهم من مواطن كثيرة في كتاب الله، ولنقدم بعضها ليستيقن القارئ من صحة ما نزعم، قال تعالى:

- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨﴾ [النساء: 58]

أليس هذا أمر إلهي؟ ألم يأمرنا الله إذاً - بصريح اللفظ القرآني- أن نؤدي الأمانات إلى أهلها، وأن نحكم بين الناس بالعدل؟ ولكن كم مرة – يا ترى- تخلفنا عن أداء الأمانة؟ وكم مرة وقع الظلم الذي جاء الأمر الإلهي لينهانا عنه؟ وبكلمات أخرى هل نفذ الأمر الإلهي كما أراده الله؟

ولنعرض مثال آخر ربما يكون أكثر وضوحاً لتبين زعمنا في أن الأمر حتى لو جاء من الله نفسه قد لا ينفذ، فها هو الله نفسه يأمر إبليس بالسجود لآدم:

- ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢﴾ [الأعراف: 12]

أليس هذا أمر صادر من الله نفسه لإبليس؟ فهل لو كان الأمر الإلهي ملزما، أكان إبليس (أو غيره) يستطيع التخلف عن تنفيذه؟ إن هذه الأمثلة تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن الأمر في النص القرآني لا يعني الإلزام وإنما التخيير.

وبمثل هذا الفهم نعود إلى سياق الحديث عن أمر الشيطان بالسوء والفحشاء وإلى النفس الأمارة بالسوء في قوله تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩﴾ [البقرة: 168-169]
- ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾ [يوسف: 53]

رأينا: إن أبسط ما يمكن أن نخلص إليه هو أن أمر الشيطان بالسوء وأمر النفس بالسوء لا تعني الإلزام للإنسان، فلا يستطيع الإنسان أن يحتج بأن السوء الذي فعله هو بسبب الشيطان، وذلك لأن فعل

الشيطان جاء من باب الأمر الذي لا يعني – بأي حال من الأحوال- الإلزام بدليل أن الناس (وإبليس) لم ينصاعوا حتى للأمر الإلهي.

نستنتج من النقاش السابق أن مهمة الشيطان لا تكمن إذاً في إيقاع الناس بالمعصية، وإنما يأمرهم بها بحثهم عليها بعد أن تكون قد تولدت من قلوبهم فخرجت لتحاك في نفوسهم وربما أخفيت في نفوسهم أو في صدورهم، فها هو الشيطان نفسه يذكّر آدم وزوجه بالأمر الرباني في النهي عن الأكل من الشجرة:

- ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠﴾ [الأعراف: 20]

فالشيطان إذاً لم يأخذ آدم وزوجه على حين غرة، فهو بذلك لا يتحمل المسؤولية الأولى في الإيقاع بهم، وإذا ما علمنا أن وسوسة الشيطان تحصل في الصدر، مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ [الناس: 4-5]

فإنّ مخالفة الأمر الرباني بالأكل من الشجرة قد تمت حياكته في قلب آدم وزوجه قبل أن يصل إلى صدريهما ليتمكن الشيطان بعدئذ من الوسوسة لهما ويزينه لهما، وبهذا الفهم فإننا ندرك أن الشك في قلب آدم قد وقع (أو أنه كان موجودا) قبل أن ينبري الشيطان لزينه لهما، فنحن لا ننسى أن مهمة الشيطان كانت منذ اللحظة الأولى تتمثل في تزين المعصية وليس في الإيقاع فيها:

- ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩﴾ [الحجر: 39]

وبهذا المنطق انتقلت قصة المعصية من آدم إلى ذريته، فجاءت الدقة القرآنية ق تصوير قتل ولد آدم أخيه على النحو التالي:

- ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٣٠﴾ [المائدة: 30]

فليس الشيطان هو إذاً من أوقع الرجل في جريمة قتل أخيه، وإنما هو (أي الأخ) من يتحمل كامل المسؤولية في قتل أخيه، لهذا أصبح من النادمين، فلو كان الشيطان سبب المعصية التي يرتكبها الإنسان لما كان هناك حاجة لأن يندم الإنسان على معصية فعلها، وإنما يأتي الندم بعد المعصية بسبب إدراك الإنسان لخطأ هو من أقدم عليه قبل أن يحثه عليه الشيطان بالوسوسة وبالتزيين.

نستنتج من الطرح السابق أن قلب الإنسان هو من يجب أن يتحمل مسؤولية المعصية أولاً ثم نفسه، ويتم الحساب الرباني على ما بدر عن قلب الإنسان، فإن كان خيرا فهو خير، وأن كان غير ذلك فلا يلومنّ إلا قلبه ونفسه الأمارة بالسوء، وهذا ترداد لقول يوسف عليه السلام في حادثته مع امرأة العزيز:

- ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥٣﴾ [يوسف: 53]

والله سبحانه يحدث الفتنة والبلاء لاستخراج مكنون ذلك القلب حتى يتم العلم به، وبالتالي محاسبة خلقه بناء على ما صدر عن قلوبهم، وانتقل إلى نفوسهم ثانياً وصدورهم ثالثاً، وحتى ما ظهر بين أيديهم ومن خلفهم أخيرا، والمفارقة أن الله لم يذكر سبباً لتعليل علمه بما في الصدر أو النفس أو ما بين يدي الإنسان وما خلفه، ولكن كان هناك تعليل متكرر للعلم الرباني لما في قلب الإنسان، الذي جاء في مثل قوله تعالى:

- ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠﴾ [آل عمران: 140]
- ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ١٦٧﴾ [آل عمران: 166-167]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٩٤﴾ [المائدة: 94]
- ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ١١﴾ [العنكبوت: 11]
- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ٢٥﴾ [الحديد: 25]
- ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ٣١﴾ [محمد: 31]

ولربما هذا هو السبب المباشر لفتنة الله:

- ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ٣﴾ [العنكبوت: 3]
- ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ٣١﴾ [محمد: 31]ذ

ولهذا كان رد إبليس يوم أن طرده الله وأخرجه على النحو التالي:

- ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ١٧ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ١٨﴾ [الأعراف: 16-18]

نعم، لقد قعد إبليس لآدم وذريته صراط الله المستقيم، ونحن لا نشك في فهم أن الصراط المستقيم هو الحد الفاصل بين الخير والشر، ولو دققنا النظر في فحوى ذلك الحوار لوجدنا الرد الإلهي يمثّل ذلك

بالتبعية، فالإنسان يتبع الشيطان، ولكن ما يجب التذكير فيه هو أن تلك التبعية لا يمكن أن تحدث إن لم يكن الإنسان راغباً فيها من ذي قبل، فأنت تتبع من تجد أنه ملائم لهواك وميولك، لهذا نجد أن الذين اتبعوا لم تكن لهم الحجة الدامغة على الذين اتبعوهم في ذلك الحوار القرآني:

- ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۝١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ۝١٦٧﴾ [البقرة: 166-167]

فلا شك أن إبليس (الشيطان) سيتبرأ من الذين اتبعوه كما تبرأ كل الذين اُتُبعوا من الذين اتبعوا، ولكن النتيجة الحتمية أنّ تلك الحجة لم تنقذهم من النار، فالكل فيها يتحاجون:

- ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۝٤٧ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ۝٤٨﴾ [غافر: 47-48]

إن مراد القول هو أن قلب الإنسان هو المسئول الأول عن عمل الإنسان سواء كان خيراً أو شراً، ولن تغني تلك الحجج الواهية شيئاً، فالقلب هو محط الإيمان والكفر، وما هو موجود فيه لا يمكن أن يعلمه أحد حتى يخرج منه، ولو دققنا النظر في قوله تعالى:

- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ۖ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ۝١١﴾ [العنكبوت: 10-11]

نجد أن علم الله بالذين آمنوا وبالمنافقين يكون بعد إحداث الفتنة، وعندها يتحصل العلم الرباني لما في قلوب العالمين. فعلم الله يبدأ عندما تنتقل المعلومة من القلب إلى الصدر بعد إحداث الفتنة، وهذا بالضبط ما نفهم من قوله تعالى:

- ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٥٤﴾ [آل عمران: 154]

وقد يرد البعض علينا بالقول أن كلامك هذا محض هراء، فالله يعلم ما في القلوب حتى ولو لم يخرج منها أي شيء، فنقول لهم دعونا نوافقكم الرأي للحظة ونطرح السؤال التالي: ما فائدة علم الله بما في قلوب الناس إذا كان الله لن يحاسبهم عليه حتى يخرج منها؟ فيردوا علينا بالقول أن ذلك من كمال علم الله، فهم يظنون أن الزعم بأن الله لا يعلم ما في القلوب هو من باب القدح بكمال علم الله، فنرد عليهم بالقول أنكم مخطئون في فهمكم هذا، بل هو العكس تماماً، فعدم علم الله لما في قلوب الناس لا يقدح بكمال علم الله في شيء، ولنطرح عليكم التساؤل التالي:

- أليس الله على كل شيء قدير؟ هل يشك أحد أن قدرة الله لا يحدها شيء؟ الجواب هو النفي قطعاً، فقدرة الله مطلقة، فإذا كان هذا صحيحا (أن قدرة الله لا يحدها شيء كما نؤمن جميعاً)، فلم يحتاج الله إلى الملائكة لتبليغ الرسالة؟ ولم يحتاج الله إلى الملائكة لكتابة أعمال العباد؟ ولم يحتاج الله للملائكة لإيقاع العذاب على الكافرين؟ ولم يحتاج الله الملائكة لحمل عرشه؟ ولم يحتاج الله الملائكة إلى ...؟ فهل استخدام الله لملائكته يقدح في كمال قدرته؟ فكما إن استخدام الملائكة في تنفيذ أوامره لا يقدح في كمال قدرته، فإن عدم علم الله بما في قلوب العالمين لا يقدح في كمال علمه.

ثم لنطرح سؤالاً أكثر جرأة، ألم يقل الله تعالى في أكثر من موطن من كتابه العزيز أن أمره ينفذ بكن فيكون:

- ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس: 82]

إذا كان الأمر على تلك الشاكلة، فكيف يمكن التوفيق بين هذا القول والحقيقة التي لا يمكن المجادلة فيها أن الله قد خلق السموات والأرض في ستة أيام؟

- ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ۝٣٨﴾ [ق: 38]

لقد تكررت هذه الفكرة في سبعة مواطن من كتاب الله، ولعل الجميع يأخذها بإيمان لا لبس فيه ولا ريبة. لهذا، ألا يحق لنا أن نطرح التساؤل التالي: هل يقدح القول أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام في كمال قدرته الكونية "كن فيكون"؟ فكما يفهم الناس أن هذا لا يقدح في تلك القدرة اللامتناهية، فإن عدم علم الله لما في قلب الإنسان لا يقدح في كمال ذلك العلم اللامتناهي.

مقارنة: أبو لهب وفرعون

ولكن قد يحتج البعض علينا بالقول أن الله يعلم ما في قلوب الناس متسلحين بالدليل الذي يمكن استنباطه من قوله تعالى:

- ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ۝٥﴾ [المسد: 1-5]

فمراد قولهم هو: إذا كان الله لا يعلم ما في قلوب الناس كما تزعم، فكيف ينزل الله آية تدل على أن نهاية أبي لهب محتومة؟ ألا تدل هذه الآية أن الله قد علم ما في قلب أبي لهب وامرأته، فكانت النتيجة المحتومة لهم أن يصلوا ناراً ذات لهب؟

نقول كلا وألف كلا، فالله لم يعلم ما في قلب أبي لهب وإنما علم ما بدر من قلب أبي لهب، ولكن كيف؟

إننا نرد السؤال بالسؤال: إذا كان الله يعلم ما في قلب أبي لهب، ألم يكن يعلم ما في قلب أبي جهل أو أمية بن خلف أو أبو سفيان ابن حرب؟ لِمَ لمْ ينزل الله سبحانه قرآناً يتلى بكفر أبي جهل وأمية بن خلف؟ ولِمَ لمْ ينزل قرآناً يتلى بإسلام أبي سفيان وزوجه هند؟ ألم يسلما بعد الفتح؟ وإذا كان الله قد أنزل قرآناً يتلى بكفر أبي لهب عم الرسول صلى الله عليه وسلم، لم لم ينزل قرآناً يتلى بإسلام عمه الثاني العباس بن عبد المطلب وهما حتى اللحظة كانا لازالا على دين قومهم وجاهليتهم؟ وإذا كان الله يعلم ما في قلوب الناس لم لم ينزل قرآناً يتلى بكفر من كفر وقرآناً يتلى بإسلام من أسلم؟ وبكلمات أدق لم أختص أبي لهب بذلك؟

رأينا: لا شك - أولاً وقبل كل شيء- أن نعي أنّ الله قد أنزل قرآنا يتلى بحق آخرين، ولعلنا نجمع على أن القرآن الكريم قد تحدث كثيراً بحق فرعون مثلاً، فما أفرد القرآن مساحة فيه كما فعل بحق فرعون، ونحن في هذا المقام نسأل: ألم يكن الله يعلم ما في قلب فرعون؟ لم يأمر الله موسى وأخيه هارون أن يذهبا إلى فرعون ويدعوانه إلى ربه؟ لم لم يقضي الله أمره فيه كما فعل بحق أبي لهب، وكفى؟ لا بل ربما يكون ردة فعل البعض القول: أن الله قد "بالغ" في دعوة فرعون في الكم والكيف، فالله قد بعث له أكثر من نبي، وأرسل له معهم الآيات والبينات، التي لم تفلح جميعها في ثنيه عن عناده ومكابرته، أما في الكيف فلربما يشعر البعض أن الله كان "يتمنى" إسلام فرعون، ولنمعن التفكير في الطلب الإلهي من نبيه موسى وأخيه هارون في كيفية دعوة فرعون:

- ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ۝٤٤﴾ [طه: 43-44]

إن المدقق في النص القرآني يجد شيئاً غاية في الغرابة وهو قول الحق: لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ، ألا يعلم الله ما في قلب فرعون؟ فكيف إذاً يقول "لَعَلَّهُ" والتي تدل بكل حال على عدم التيقن من حتمية ما ستؤول إليه الأمور؟

افتراء من عند أنفسنا: إن الجواب الذي نقدمه هنا هو إن الله لم يكن يعلم ما في قلب فرعون، ولو علم ما في قلبه لاتخذ قراراً حاسماً بأن فرعون لن يؤمن كما كان فعلاً من أمره، وربما لما بعث له الرسل لدعوته إلى الإيمان. فنحن نعلم بنص القرآني الكريم أنه إذا تحصل العلم الرباني بأن القوم لن يؤمنوا يقع عليهم العذاب على الفور:

- ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٣٦﴾ [هود: 36]

ولكن يبقى السؤال قائماً: كيف تقول أن الله لم يكن يعلم ما في قلب فرعون، وفي الوقت ذاته أنزل قرآناً يتلى بحق أبي لهب وهذه الأقوام التي حسم الله أمره فيه بعدم إيمانهم؟

رأينا: إن الجواب الذي نقدمه هنا بسيط للغاية، ويتمثل في فهم زعمنا السابق وهو: إنّ الله لا يعلم ما في القلوب ولكنه يطلع على القلوب، فالله لم يعلم ما في قلب فرعون ولكنه أطلع على قلب أبي لهب. هذه أحجية، فلسفة كلامية لا نرغبها، أليس كذلك؟

نقول كلا وألف كلا، هذه دقة في فهم الألفاظ التي يجب الوقوف عندها وتجليتها لتبين المعاني ويزيل اللبس والتشابه، وقبل أن أقدم الشرح المفصل في هذه القضية سأعرج على قضية أخرى تفيدنا في كيفية الوقوف عند أدق الألفاظ التي ربما تشكل على الكثيرين، ومراد قولنا هو أن الدقة في فهم الألفاظ تزيل الإبهام.

مثال:

قال تعالى في محكم التنزيل:

- ﴿... وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ [النساء: 78]

ثم أتبع هذه الآية على الفور بقوله تعالى:

- ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء: 79]

دقق – عزيزي القارئ- في الآية 78، ألا تجد أن الله ينسب الحسنة والسيئة لنفسه "قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ"؟ ثم دقق – حماك الله- في الآية 79، ألا تجد أن الله ينسب الحسنة لنفسه بينما ينسب السيئة للإنسان "مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ"؟

السؤال: كيف إذاً يمكن التوفيق بين ما جاء في الآية الكريمة 78 وما تبعها في الآية 79؟

جواب: إن حل المسألة غاية في البساطة إن نحن حملنا كلام الله محمل الجد، ودققنا النظر في ألفاظه، نستطيع حينها تجلية الأفهام وإزالة التشابه الذي ربما يربك الكثيرين، فحتى لا يبقى كلامنا في إطاره النظري نقول أننا لو دققنا النظر لوجدنا فرقاً في اللفظ واضح تمام الوضوح في الآيتين الكريمتين، والفرق هو ورود كلمة "عِنْدِ" في الآية 78، وورود كلمة "فَمِنْ" في الآية 79. فالله سبحانه في الآية 78 يقر حقيقة لا جدال فيها وهي أن الحسنة والسيئة كل من عند الله (نعم من عند الله) ولكن الحسنة فقط هي من الله (نعم من الله)، أما السيئة فهي من الإنسان (نعم من الإنسان). فالآيتان الكريمتان يدعواننا إذاً إلى التمييز بين ما هو من عند الله وما هو من الله، وهناك فرق عظيم بين أن يكون الشيء مثلا من عندك (ولله المثل الأعلى) أو أن يكون منك. فانا قد أكون تناولت الشيء من عندك، ولكنك ربما لا تكون مسئولا عنه، أما إذا كان الشيء منك مباشرة فإنك بلا شك تتحمل كامل المسؤولية فيه. فلو أخذت أنا سكيناً من عندك وقمت بطعن شخص بتلك السكين فهل يل ترى تتحمل أنت مسؤولية فعلتي تلك؟ ولكن لو كانت السكين منك (كأن تكون أنت من أعطيتني تلك السكين)، فلا شك أنك تتحمل ولو جزءاً من تلك المسؤولية، فالله إذاً ليس مسئولاً عن السيئة لأنها من عنده فقط وليست منه، ولكنه مسئول عن الحسنة لأنها من عنده ومنه.

لذا فإننا عندما ندعو إلى التفريق بين ما هو من عند الله وما هو من الله لا يكون ذلك من باب فلسفة الكلام، وإنما هي من باب الدقة في تمييز الألفاظ، فأنا شخصياً كنت أرد بطريقة قوية وربما فضّة

بعض الشيء إذا ما قال أحدهم بعد حصول حادث طريق مثلاً أن ذلك من الله، فأرد على الفور بأن ذلك ليس من الله، وأن هذا ليس أكثر من افتراء على الله، فما تكون ردة فعل من يسمع مثل قولي هذا- في غالب الأحيان- إلا أن ينعتني بعدم الإيمان بالقدر وربما أحياناً بالإلحاد، وتكتمل الصورة السلبية عني عندما يحصل أحياناً أن أقول إذا ما حدث مكروه ما أنّ ذلك من عند الله، فما يكون منهم إلا أن ينعتوني ليس فقط بالإلحاد وإنما بالجنون، ظانين أني أقول المتناقضات، فلمثل هؤلاء لا أجد رداً أفضل مما جاء في الآية الكريمة نفسها وهي قوله تعالى "فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا".

نعم، ذلك – برأينا- هو فقه الحديث، إنه دقة التمييز في الألفاظ، وبالتالي دقة المعاني التي تحملها تلك الألفاظ في ثناياها.

وبمثل فقه الحديث هذا نعود إلى زعمنا السابق الذي ظن البعض أنه من باب فلسفة الكلام ألا وهو قولنا: أن الله لم يكن يعلم ما في قلب فرعون ولكنه اطلع على قلب أبي لهب، وهذا هو الفرق!

ما الفرق بين أن يعلم الله ما في قلب الإنسان وأن يطلع الله على قلب الإنسان؟

هناك فرق عظيم بين الحالتين، فالعلم بما في قلب الإنسان تتطلب الولوج إلى داخله، ولكن الإطلاع على قلب الإنسان لا يكون بأكثر من التعرف عليه من الخارج.

وسنعيد هنا بعض ما زعمناه سابقا حول كيفية تعامل الله مع قلب الإنسان من الخارج، وقد كان جل الافتراض هو أن الله يتعامل مع قلب الإنسان من الخارج، قال تعالى:

- ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧﴾ [البقرة: 7]
- ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٥٥﴾ [النساء: 155]
- ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٥﴾ [الأنعام: 25]
- ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ ٤٦﴾ [الأنعام: 46]
- ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠١﴾ [الأعراف: 101]
- ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ٤٦﴾ [الإسراء: 46]

- ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾ [الكهف: 14]
- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف: 57]
- ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الروم: 59]
- ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ [محمد: 16]
- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ [المنافقون: 3]
- ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: 14]
- ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: 193-194]
- ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القصص: 10]
- ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: 35]
- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾ [الشورى: 24]
- ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: 23]

تدل الآيات الكريمة السابقة جميعها على أن الله سبحانه يختم على قلب الإنسان، ويطبع على قلبه، ويجعل على قلبه أكنة، ويربط على قلبه، وهكذا، ألا ترى – عزيزي القارئ- أن هذه الآيات جميعها تصور كيف يتعامل الله مع قلب الإنسان الكافر من الخارج، والجميل في الأمر أنه لا يوجد في كتاب الله آية واحدة تصور دخول الله إلى قلب الإنسان الكافر (ولكن هناك فرصة أن يدخل الله إلى قلب الإنسان المؤمن)، وجل ما نجد أنه إذا أراد الله أن يدخل شيئاً في قلب الإنسان الكافر يتم ذلك عن بعد، ولنمعن التفكير في مفردة "سألقي" في قوله تعالى:

- ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: 12]

ولكن يبقى السؤال الكبير: لماذا لا يدخل الله إلى قلب الإنسان ليستجلي ما فيه؟ لقد ذكرنا في سابقا أن القلب ليس تجويفاً فارغاً كالصدر أو النفس وإنما هو كتلة واحدة متماسكة، وقلب الكافر على وجه الخصوص يكون من الصلابة لدرجة تفوق صلابة الحجارة مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: 74]
- ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: 13]

فالقلب إذاً - بصريح اللفظ القرآني- قد يكون أشد قسوة من الحجارة، وهو مقفل محكم الإغلاق، قال تعالى:

- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: 24]

ولهذا لا يستطيع أحد الولوج إلى داخله، فقد جاءت معظم الآيات القرآنية التي تتحدث عن القلب (خاصة قلب الكافر) لتتعامل معه من الخارج، وبالمقابل فإن قلب الإنسان المؤمن –على عكس قلب الكافر- يكون وجلاً، خاشعاً:

- ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: 2]
- ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحج: 35]

وهذه المقارنة واضحة جلية في قوله تعالى:

- ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: 16]

فالمؤمنون قلوبهم خاشعة وجله، أما الفاسقون فقلوبهم قاسية متحجرة، ولهذا عندما يطّلع الله على قلوب العالمين ويجدها قد أصبحت قاسية صلبه كالحجارة أو أشد قسوة، فلا يكون هناك حاجة للدخول إليها، فالخارج ينبئ عن ما في الداخل، وبهذا الفهم يمكن أن نعود لحل إشكالية أبي لهب وفرعون التي بدأنا النقاش حولها.

افتراء من عند أنفسنا: إننا نزعم فهم الفرق بين حالة أبي لهب وحالة فرعون على النحو التالي: لقد اطلع الله على قلب أبي لهب فوجده قد أصبح صلباً كالحجارة أو أشد قسوة، عندها ختم على قلبه وأنزل قرآناً يتلى بحقه أنه سيصلى ناراً ذات لهب، وكذلك هو الأمر عندما اطلع على قلب قوم نوح أو ابن نوح أو امرأة نوح و امرأة لوط وغيرهم، فكان القرار الإلهي أن هؤلاء لن يؤمنوا لأن قلوبهم وصلت إلى درجة من الصلابة والقسوة ما يفوق صلابة الحجارة، وبهذا استحقت أن تغلّف، ويطبع عليها، وتختم، وعندها لا يمكن أن يكون هناك رجعة إلى الوراء. ولهذا يمكن أن يتفكر أحدنا بالسيناريو التالي: ألم يكن يستطيع أبو لهب أن يرد على هذا التنزيل الإلهي بإعلان إسلامه؟ ألا يستطيع حينها أن يحرج فكرة الإسلام كلها؟ ولكن لماذا لم يفعل؟ الجواب: لأن قلبه كان قد أقفل في تلك اللحظة، فهو لا يستطيع الرجوع إلى الوراء قيد أنمله:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧﴾ [البقرة: 6-7]

لاحظ – عزيزي القارئ- كيف يصور القرآن الكريم أن ذلك الختم يأتي بعد أن يكونوا قد كفروا، فاستحقوا بذلك أن تقفل قلوبهم، فلم تعد النذر تفيدهم في شيء، فإنذارهم أو عدم إنذارهم سيان، لأن قلوبهم قد تحجرت، فاستحقت بذلك أن تختم، وهذا ما كان من أمر أبي لهب، أو ابن نوح مثلاً.

وبالمقابل، فإنه عندما اطلع الله على قلب أبي جهل أو العباس بن عبد المطلب أو أبو سفيان بن حرب، وجده لم يصل بعد إلى تلك الدرجة من الصلابة التي تستدعي أن تقفل وتختم، فلا زال هناك بارقة أمل بأن القلب لم "يتحجر" –إن صح القول – بعد، لذا لا يمكن أن ينزل الله قرآناً يؤكد كفرهم أو إسلامهم، فالاحتمال بكلا الاتجاهين لازال واردا، فكانت النتيجة أن كفر أبو جهل وأسلم العباس وأبو سفيان.

وهذا- على ما نظن- ما كان من أمر فرعون، فالله سبحانه كان قد اطلع على قلب فرعون من الخارج كما يطلع على قلوب الناس أجمعين، فوجده لم يصل بعد إلى درجة الصلابة التي يمكن أن يحسم أمر فرعون بالكفر، فلا زال هناك بارقة أمل بإيمانه، لهذا جاء القول الرباني واضحاً تمام الوضوح على نحو:

- ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾ [طه: 43-44]

لاحظ - عزيزي القارئ- كيف يطلب الله من موسى وأخيه هارون تليين القول لفرعون فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا، ومن ثم يؤكد الله احتمالية (لَعَلَّهُۥ) أن يصدّق فرعونُ قولَهما، فتكون النتيجة إيجابية على نحو يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ. ونحن نملك بعض الأدلة من كتاب الله تثبت زعمنا أن قلب فرعون لم يصل بعد درجة الصلابة التي لا رجعة فيها، كما حصل في حالة أبي لهب.

أما الدليل الأول فيتمثل في قبول فرعون أن لا يقتل ذلك الوليد الذي عثر عليه في اليم، وهو على يقين بأنه من أبناء بني إسرائيل نزولاً عند رغبة امرأته، فبالرغم من كل التقتيل الذي أوقعه فيهم إلا أنه لا زال هناك بارقة أمل بأن يتراجع، إن قبول فرعون حجة امرأته يعني أن قلبه لم يستنفذ إمكانية أن يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ.

ثانياً، لم يقدم فرعون على قتل موسى في الحال يوم أن تحداه وأصبح يشكل خطراً واضحاً على ملكه، وإنما طلب من القوم الإذن بقتل موسى:

- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: 26]

وسؤالنا في هذا المقام هو: هل يحتاج فرعون أخذ الأذن من أحد ليقتل من يعارضه أو من يشكل خطراً على ملكه؟

ثالثا، لا أخال أن فرعون كان قد حسم أمره بقتل موسى، فكم مرة سنحت الفرصة لفرعون أن يمسك بموسى فيقتله، لكنه كان في كل مرة يقبل التحدي مع موسى ولا يقدم على قتله، فهل سأل أحدنا نفسه السؤال التالي: لماذا لم يقتل فرعونُ موسى عندما تمكن منه في عقر داره؟ ألم يحظر موسى بنفسه إلى بلاط فرعون؟ لقد كان الجواب الجاهز من علماء الأمة على مثل هذا السؤال هو أن ذلك كان بسبب حفظ الله لموسى، فنرد على مثل هذا المنطق بالسؤال نفسه: لماذا إذاً لم يحفظ الله نبيه يحيى ويحميه من ذلك الطاغية الذي قطع رأسه؟ ولماذا لم يحفظ الله الكثير من أنبياءه الذين أقر الله نفسه في كتابه أنهم قد قتلوا على أيدي الظالمين خصوصاً من بني إسرائيل؟

- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة: 91]
- ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [آل عمران: 183]
- ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران: 181]
- ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ [النساء: 155]

إذن، نستميح السادة العلماء العذر لنخالفهم الرأي مرة أخرى، فالله لا يحمي هذا ويترك ذاك، ولو كان الله حارساً شخصياً (حاشاه جل وعلى) لحمى جميع أنبياءه ورسوله، لتكون تلك سنة الله التي لا تبديل لها.

ونعود للسؤال نفسه: لماذا قبل فرعون التحدي مع موسى في الأساس ولم يقدم على قتله في كل مرة سنحت له الفرصة بذلك؟ فلقد ظن موسى وأخيه هارون أن فرعون لا محالة قاتلهما، فقالا:

- ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ [طه: 45]

ولكن الله المطلع على القلوب كان قد طمأنهما على النحو التالي:

- ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾ [طه: 46]

فلماذا جاء تطمين من الله بأن فرعون لن يقتلهما؟ لاحظ – عزيزي القارئ- أن الله لم يتعهد بحمايتهما، وجل ما قاله لهما هو "قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى"، إننا نظن أن الجواب يكمن في اطلاع الله على قلب فرعون، فعلم أن قلب فرعون لم يصل إلى تلك الدرجة من الصلابة التي لا رجعة فيها.

فالله سبحانه لم يكن ليضيع لفرعون بصيص الأمل ذاك، مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٤٠﴾ [النساء: 40]

فقدّم له الآيات البينات حتى يتنامى ذاك الأمل ويكبر، ولهذا نجد أن الله لم يعاقب فرعون بالرغم من كل ما فعل، فقد قتّل أبناء بني إسرائيل، وضيّق الخناق على موسى ومن معه، وفوق كل ذلك فقد ادعى لنفسه الألوهية:

- ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ٢١ ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النازعات: 17-24]
- ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨﴾ [القصص: 38]

فبالرغم من كل هذه الذنوب وعظمها لم يتخذ الله القرار بكفر فرعون حتى اللحظة الأخيرة (أي حتى أقدم فرعون على هلاكه بيده)، ولو أمعنا النظر لوجدنا أن الله لم يغرق فرعون، حتى دخل فرعون بنفسه إلى البحر، فلقد كان يرى بأم عينه إنشقاق البحر، فلم يقدم على الدخول في تلك المغامرة؟

رابعاً، لعل المدقق في مفردات الآية الأخيرة يجد الحجة الواضحة التي تدعم زعمنا أن قلب فرعون لم يصل بعد إلى درجة قسوة القلب النهائية، فها هو يرد على دعوى موسى بالقول:

وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ

فهو إذاً لم يتيقن من درجة التكذيب بما جاء به موسى، فكان كلامه ظنياً، لأن هناك في قلبه –برأينا- شيء من التصديق، ولكنها المكابرة والمعاندة التي منعته من إتباع بصيص الأمل ذاك:

- ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ٣٩﴾ [القصص: 39]

فبالرغم أن فرعون كان يدعي الألوهية إلا أنه يعلم في قرارة نفسه أنه ليس إله، وعلى الرغم من كل محاولاته في تعمية قومه، إلا أن الكلمات قد فلتت منه لتكشف عن سريرته، فخاطب القوم عن موسى بلغة الظن وليس اليقين:

وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ

وإني- بدوري- لأظن أن بعض الحاضرين أدركوا هذه الحقيقة، فأمنوا بدعوة موسى:

- ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر: 28]

لاحظ كيف يتحدث الرجل بلغة الشرط متسلحاً بظن فرعون، فلو كان فرعون متيقناً من كذب موسى عازماً على قتله لما استطاع أحد من حاشيته أن يبوح بمثل هذا الكلام في مجلسه.

واخيراً، فليس أدل على بصيص الأمل الذي كان الله يريد أن ينميّه لفرعون مما بدر من فرعون في نهاية المطاف (أي في اللحظات الأخيرة)، فبعد أن تيقن فرعون من غرقه كانت ردت فعلته على النحو التالي:

- ﴿۞ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس: 90]

نعم لقد صدر من فرعون ما لم يكن بالحسبان: إنه الإقرار بإفراد الإلوهية لـ إله بني إسرائيل، ويأتي السؤال الذي لا مفر منه على النحو التالي:

لماذا حسم الله الأمر بكفر أبي لهب وامرأته ولم يحسمه بشأن أبي جهل أو أمية بن خلف؟ ولماذا لم يحسم الله الأمر بكفر فرعون بالرغم من كل مكابرته وعصيانه وهو من قال أنا ربكم الأعلى؟ فنحن نعلم أن أبي لهب لم يدّعي الإلوهية بينما ادعى فرعون الإلوهية، ولا شك أن ذنب فرعون أعظم بكثير من ذنب أبي لهب؟

افتراء من عند أنفسنا: إننا نزعم أن الجواب بسيط وهو على النحو التالي: إن الله لا يدخل إلى قلوب العالمين ليطلع على ما فيها، لذا فهو لم ينسب لنفسه العلم بإسلامهم أو بكفرهم، فحتى فرعون نفسه لم ينسب الله لنفسه العلم بكفره مسبقاً، بل بعث إليه الرسل وكان الحال على نحو "لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ"، فلم يختم على قلبه حتى أقدم هو على هلاكه بنفسه

إن زعمنا هذا ربما يحل إشكالات كثيرة في الفكر الديني سنتعرض لبعضها:

- ⇐ قضية التسيير والتخيير
- ⇐ لقد غالى الكثيرون من أبناء الإسلام في قضية العلم بالغيب دون وجود نص، حتى نسبوه لبعض الناس، ولا شك أن بعض علماء الإمامية الأثنى عشرية مثلاً قد نسبوا علم ما كان وما يكون وما هو كائن لشخص الإمام، ونحن نرد عليهم بالنصوص الواضحة في كتاب الله أن الله نفسه يحدث البلاء ليمحص ما في القلوب ليحصل له العلم بما سيصدر عن الإنسان من فعل، فكيف يكون ذلك لبعض من خلقه؟ أي كيف يمكن أن يتحصل للناس (أو حتى للبشر) ما لم يتحصل لرب الناس؟
- ⇐ الفتنة الإلهية: لماذا يحدث الله الفتنة أو البلاء؟

لقد خالج الكثيرون سؤالا مفاده: لماذا يقع البلاء على البعض ولا يقع على البعض الآخر؟ فكم مرة يردد الناس كلاماً كأن يقولوا أن هؤلاء الكفرة يعيشون حياة هنيئة قلما تصاب بالفتن والبلاء، بينما يعيش كثير من أبناء المسلمين حياة مليئة بالفتن والبلاء، وفي الوقت نفسه تجد مثل هذا التصور في قول بعضهم الآخر أن الإنسان المؤمن يعيش حياة هنيئة سعيدة، ويقابل ذلك خطب المشايخ في أن أشد الناس بلاءً هم الأنبياء، فيقع الناس في حيص بيص، في من يفتن ومن لا يفتن، في من يتنعم بالحياة الرغد ومن حياته كلها بلاء وشدة، وهناك إشارات في كتاب الله على كل هذه الملاحظات، وسنحاول التعرض لها تباعاً، ولكن قبل أن ندلوا بدلونا في هذا الموضوع، دعونا نعيد الفكرة الرئيسة التي حاولنا الدفاع عنها في بحثنا هذا ألا وهي: أن الله يطلع على القلوب من الخارج، فتبين تلك القلوب على هيئات ثلاث:

1. قلوب كافر (كالحجارة أو أشد قسوة)
2. قلوب مؤمنة وجلة خاشعة مستيقنة
3. وقلوب مرتابة مترددة (بين الحالتين السابقتين)

ونحن نزعم أن البلاء (الفتنة) لا تصيب القلوب الكافرة التي وصلت من القسوة إلى درجة الحجارة أو أشد قسوة، فتلك قلوب تستحق أن يطبع الله عليها بكفرها، ليقع عليها العذاب، فالله إذا ليس بحاجة أن يبتلي ما في تلك القلوب، فكفرها واضح بيّن، لذا فإن الكافرين الذين وصلوا في كفرهم إلى هذه الدرجة يتنعمون برغد الحياة، مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ٣٣ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ٣٤ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ٣٥﴾ [الزخرف: 33-35]

وهذا ينطبق على النقيض من ذلك، القلب المؤمن المستيقن، فإذا كان قلب الإنسان وجلا مستيقنا، بائناً ما فيه، فلا حاجة لله أن يبتليه.

ولكن الله يوقع البلاء على من لازال في قلبه بعض الريبة (حتى وإن كانت أقل القليل)، ولعلنا نطرح سؤالاً غريباً ربما نستطيع فهمه من هذا المنظور، ألا وهو: لماذا ابتلى الله آدم بالأكل من الشجرة؟ ولماذا ابتلى الله إبراهيم بذبح ولده؟ وهكذا.

إن الجواب من هذا المنظور بسيط للغاية، فلقد اطلع الله على قلب كل منهم، فوجد أن فيه بعض الريبة، ولم يكن مستيقناً تماماً، لذا كان لزاماً أن يخرج الله ما في قلوبهم، فتقبل آدم لوسوسة الشيطان يشير إلى ما كان في قلبه، ولقد صرح إبراهيم بذلك الشيء الذي خاطر قلبه، فكان الحوار الرباني مع إبراهيم على النحو التالي:

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٦٠﴾ [البقرة:260]

ولو دققنا في هذا الحوار لوجدنا أنه يثير تساؤلات عدة حاولنا الإجابة عنها في بحثنا هذا، ومنها:

1. إذا كان الله يعلم ما في قلب إبراهيم، فلم يسأله سؤالاً كهذا: قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ؟
2. وإذا كان الله فعلا يعلم ما في قلب إبراهيم، فلِمَ لمْ يكن رد إبراهيم كما كان رد عيسى عليه السلام عندما سأله الله سؤالاً مشابهاً؟

- ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ١١٦﴾ [المائدة: 116]

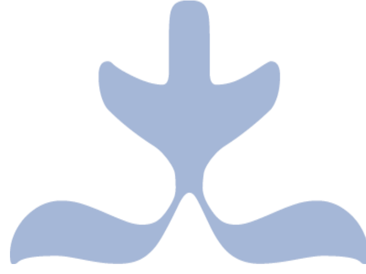
وبكلمات أخرى، لم لم يقل إبراهيم لربه أنك تعلم ما في قلبي ولا أعلم ما في قلبك؟ لاحظ كيف أن الحديث في حالة إبراهيم كانت عن القلب وما فيه، ولكن الحوار مع عيسى كان عن النفس، وشتان بين ما في القلب وما في النفس.

3. لم جاء رد إبراهيم على نحو: قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي، فما هي الطمأنينة التي كان ينشدها إبراهيم؟ إنها طمأنينة القلب، وهذا يعني أن قلب إبراهيم قد خالجه بعض الشك، ولا ننسى أن ذلك الشك كان بعد حواره مع النمرود، الحوار الذي كان جله حول من يحيي ومن يميت، فبالرغم أن إبراهيم هو من استخدم دليل أن الله يحيي ويميت ليقيم الحجة على النمرود نجد أنه عاد هو بنفسه ليسأل الله عن كيفية إحياء الموتى

لذا نجد أن قلب إبراهيم لم يعد كما كان يوم أن جاء الله بقلب سليم في بداية تعرفه على ربه، والحالة هذه كان لابد من البلاء أن يقع على هذا النبي، فكان البلاء على نحو أن يذبح ولد، ولا شك أن ذلك كان حملاً ثقيلاً على إبراهيم، لم ينجو منه إلا بعد أن اسلم قلبه كاملاً لله، وأذعن لذلك البلاء العظيم:

- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ١٠٣ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ١٠٦﴾ [الصافات: 102-106]

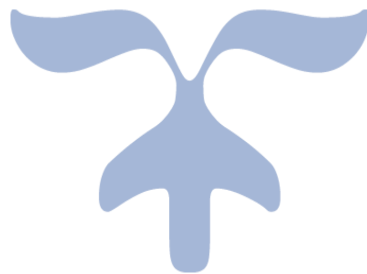
وللحديث بقية



هل لعلم الله حدود؟

الجزء الخامس

جدلية القلب والعقل (4)



الجزء الخامس: جدلية القلب والعقل(4)

بادئ ذي بدء- لابد من الإشارة إلى أمرين اثنين:

⇐ أولاً، بالرغم أن غالبية القراء قد أبدوا اهتماماً شـديداً بما نقول، إلا أنّ عدداً من القراء قد ضـاق صـدرهم ببعض ما نزعم،ونحن إذ نفهم أنّ مثل هذا الانزعاج –لا شـك- مدفوع بنيتهم الحسـنة تجاه هذا الدين، وهو ما يجب أن نشـكرهم عليه، إلا أننا نؤكد في الوقت ذاته أن الله سـبحانه قد فض الخلاف في حالة الاختلاف، فنحن نطلب من القراء الكرام أن يفهموا بأن منهجيتنا تتمثل في قوله تعالى:

- ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٥ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ۝٢٦﴾ [سبأ: 25-26]

وهل هناك عدل أكثر من هذا؟ لنفترض أن ما نقوم به نحن هو من باب الإجرام، فانتم لا شـك لن تُسـألوا عنه، ولكننا نحن سـنفترض دائماً أن ما تقومون به هو من باب "ما تفعلون"، وفي الوقت ذاته لن نعدم نحن وإياكم الدعاء والتضرع إلى الله أن يفتح بيننا بالحق (قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ).

دعاء: ربي افتح بيني وبين قومي بالحق إنك أنت الفتاح العليم

⇐ ثانياً، لقد أكدّنا مراراً أن ما نزعم لا يتعدى فهمنا (الذي ربما يضـل طريقه) لما في كتاب الله، وهو بكل تأكيد لا يمثل ما هو موجود فعلاً في كتاب الله، لذا فهو لا يكون جزءاً من عقيدتنا إلاّ إنْ صح، فإن صح فهو بلا شك عقيدتنا ومنهجنا، وإن تبيّن خطأه فلابد أن نضرب به عرض الحائط، وجل ما نصر عليه هو أن هذه الأفهام ربما يكون لها أصول في الآيات الكريمة التي نتعرض لها، ولا شك أن من واجبنا أن نطرق كل المعاني التي يحملها كلام الله، فلربما قادتنا هذه الأفهام (على غرابتها في بعض الأحيان) إلى مبتغانا. أما إذا ما وقفنا أمام هذه الأفهام منذ اللحظة الأولى موقف المعارض الرافض (ليس لشيء إلا لأنها تتنافى مع ألفناه واعتادت أذننا على سـماعه)، وحاولنا إيقافها ووأدها في مهدها، فلا أخال أننا سنستطيع المضي خطوة واحدة إلى الأمام، فلقد ركد الفكر الإسلامي منذ قرون، وظن البعض (وتولدت القناعة عند البعض الآخر) أن كل شيء أصبح واضحاً واتخذ شـكله النهائي، فنرد على من يظن ذلك بالقول: وهل فعلاً وجدتم مبتغاكم فيما خلصـتم إليه؟

على الأقل، نحن لم نجد ضالتنا بعد، ولا أخال أن أحداً من الناس يستطيع أن يمنعنا البحث عنها.

أما بعد،

باب العلم

لقد زعمنا في سابقا أنّ طرحنا هذا قد يحل بعض الإشكالات في الفكر الديني الإسلامي، فتعرضنا لبعضها مثل قضية التسيير والتخيير، وإحداث الفتنة، وغيرها، وسنحاول في مبحثنا هذا متابعة مثل هذه الإشكالات ومحاولة التطرق لها من هذا الباب، علّنا – بحول الله وتوفيقه- نستطيع أن نجد أجوبة على بعض التساؤلات التي يطرحها البعض، إن لم يكن على الملأ، فعلى نفسه.

أما بعد،

لقد حاولنا جاهدين أن نميّز كيفية علم الله بما يفعل الإنسان عن محض إرادة منه، دون تدخل من أي قوة خارجية مهما كانت، وذلك بافتراضنا أن حياكة القرار تتم أولاً في القلب الذي لا يستطيع أحد الولوج إلى داخله، ومن ثم تنتقل المعلومة إلى الصدر (وعندها يأتي دور الشيطان في الوسوسة) وإلى النفس (التي غالباً ما تأمر بالسوء (إلا من رحم ربي))، ولا يعلم بها الناس من حوله حتى تبين بين يديه ومن خلفه. و حاولنا التمييز بين مراحل العلم عند الله نفسه وعند الإنسان وعند الشيطان، وخلصنا إلى الجدول التالي:

علم الله	علم الشيطان	علم البشر	العلم المكنون الذي لا يعلمه أحد
⇐ لما بين أيديهم وما خلفهم ⇐ لما في صدورهم ⇐ لما في نفوسهم	⇐ لما بين أيديهم وما خلفهم ⇐ لما في صدورهم	⇐ لما بين أيديهم وما خلفهم	⇐ لما في قلوبهم

وكان المهم في الموضوع حينئذ هو الافتراء الذي (هو بلا شك من عند أنفسنا) مفاده أن حياكة الأمر تتم في القلب الذي ليس لأحد (غير صاحبه) سلطان عليه، ويكون اطلاع الله عليه من الخارج، فينبئ الخارج ما يحتويه الداخل. فإذا ما وجد الله أن قلب ذلك الشخص قد وصل إلى درجة الصلابة التي تفوق صلابة الحجارة أصبح لزاماً أن يقفل ذلك القلب وذلك لأن أمر التوبة أو العودة أصبح مستحيلاً (كما كان حال قلب أبي لهب وامرأته فأنزل الله قرءاناً يتلي بكفره ونهايته المحتومة)، وأما إذا كان القلب لم يصل بعد إلى تلك الحالة من الصلابة فإن الأمر لازال فيه وجهة نظر (كما كان الحال بالنسبة لقلب فرعون، فما أنزل الله قرءاناً يتلى بحتمية كفره ونهايته).

وسنحاول إن أذن الله لنا بشيء من علمه أن نبين انعكاسات هذه العقيدة في قصة صاحب موسى عندما قتل الغلام الذي لقيآه في الطريق، فالله أسأل أن ينفذ مشيئته وإرادته لي الإحاطة بعلم من لدنه لا ينبغي لغيري إنه هو السميع العليم)

وقد حاولنا تبيان أن ذلك يقتصر على مفردة العلم (والعلم فقط)، ولا يجب تعديته إلى المجالات الأخرى، وقد ركزنا على زعمنا أن العلم يعني وصول الخبر بالنقل، وسنحاول في مبحثنا هذا تبيان ذلك بشيء من التفصيل، لأننا على يقين أنه سيحصل الكثير من الخلط في الأفهام، لظننا أن الكثيرين لا يقفون عند المفردات المقصودة، فهم غالباً ما يسقطون أفهامهم هم على ما نقول نحن، وهنا لابد من التأكيد أن ذلك يخصهم ولا يعبر بأي شكل من الأشكال عن وجهة نظرنا، فنحن نفهم أننا محاسبون على ما نقول ولسنا محاسبون على ما يفهمون.

فلقد أكدنا مراراً أن ما نزعم هنا لا يتعدى مفردة العلم، ولكن الكثيرون ذهبوا إلى القول أن كلامك هذا يعني أن الله "لا يعرف" ما يجري حوله، وفي هذا –لا شك- انتقاص من كمال الله. فنرد بالقول كلا وألف كلا، فلقد أكّدنا أن فهمنا لطلب الله العلم بالشيء كما في قوله تعالى:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾ [البقرة: 143]
- ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٢١﴾ [سبأ: 20-21]

لا ينقص بأي شكل من الأشكال من كمال علم الله ، بالضبط كما أن استخدام الله لملائكته لتنفيذ أوامره لا ينقص من كمال قدرته وهو الذي يقضي أمره – بلا شك- بكن فيكون. فنحن نتكفل الرد بالدليل من كتاب الله نفسه، ولكن لابد من التأكيد على الالتزام بالمفردة كما حددها النص القرآني وهي العلم، ولا يجب تعديتها إلى مجالات أخرى كالمعرفة والفهم وغيرها.

فغالباً ما وجدت أن الكثيرين يخلطون مثل هذه المجالات، ويجوزون بعضها إلى بعض، فقد كنت أثير في قاعة الدرس مثل هذه القضايا لأتيقن من ظني أن الناس يخلطون مثل هذه المفاهيم، ولا يقفون عند حدود المفردة والنص، وسأقدم مثالاً بسيطاً يبيّن كيف يتم خلط المفاهيم، فتتشابك الأفكار، وتتشتت الأفهام.

المثال

عندما كنت أقول لطلابي – مثلاً- أني "أكثر أهل الأرض علماً" في حوار حول موضوع ما، تثور ثائرة الغالبية العظمى منهم لينعتوني بالتكبر والغطرسة، وكنت أرى في أعينهم التعجب من مثل هذا القول، فهم قد جبلوا على الاعتقاد أن الجاهل هو من قال عن نفسه أنه عالم (كما ورثوه عن شيخهم الذي أظن أنه ابن المبارك)، ولكني لا أعرف ما سيصنع هؤلاء بما جاء في كتاب الله على لسان نبيه يوسف عليه السلام:

- ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [يوسف: 55-56]

فهل كان يوسف – يا ترى- جاهلاً عندما شهد لنفسه بالعلم؟!

المهم بالموضوع ليس فقط استغراب الطلاب لمثل هذا الزعم، لا بل تتأكد لديهم القناعة "بتفاهة ما أدعي من قول عندما أكرر على مسمع الجميع في ردي على سؤال ما بالقَسم "أني لا أفهم شيئاً" (كما أقول بالعاميّة الأردنية: والله ما أني فاهم إشي)، لأجد الاستغراب أو الاستهجان يكبر ويتعاظم في عيون الكثيرين حول هذا التناقض العجيب، ولقد ذكرها الكثيرون لي صراحة: "كيف تقول أنك لا تفهم شيئاً وأنت كنت قد زعمت قبل لحظات أو على أكثر تقدير في الدرس السابق أنك أعلم أهل الأرض؟!" فلسان حالهم يقول: ألا ترى أنك تناقض نفسك عندما تزعم أنك أكثر أهل الأرض علماً وفي الوقت ذاته تؤكد أنك لا تفهم شيئاً؟!

فما يكون ردي على مثل هذا القول سوى ترداد قول الحق: "فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا". نعم، مالِ هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا؟ هل فعلاً كلامي يناقض بعضه بعضا؟ هل ظني أني أعلم أهل الأرض يناقض قولي أني لا أفهم شيئاً؟ الجواب: كلا بكل تأكيد.

فالعلم ليس فهما، والفهم ليس علماً، ألا يستطيع هؤلاء أن يميّزوا الكلام؟ وبكلمات أدق "ألا يستطيع هؤلاء أن يفقهوا القول"؟ أليس حريّ بنا أن لا نخلط التفاح بالبرتقال والخيار بالموز؟ هل تشابه أحدهما مع الآخر في الشكل يعطنا إجازة أن نخلط الواحد منهم مع الآخر؟

فحتى نســتجلي مثل هذا الادعاء دعنا نفرد الدليل من كتاب الله على التميز بين أن يقول أحدنا "أني أعلم" أو أن يقول "أني أفهم".

هل فهم داوود ما فهمه ولده سليمان؟

لربما سمع الجميع بخبر نبي الله داود وولده سليمان، فالله سبحانه قد اختصهم (كما اختص أنبياء آخرين) بالعلم والحكمة، فلقد تحصّل العلم لداود كما تحصّلت له الحكمة، أليس كذلك؟

- ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١﴾ [البقرة: 251]

وتحصل العلم لسليمان كوالدة، فكان الاثنان أهلاً لذاك العلم:

- ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥﴾ [النمل: 15]

ولكنّنا نعلم كذلك أنّ مشكلة ما حصلت في حياة هذين النبيين الكريمين، والملفت للانتباه أن أحدهما فهم ما حصل ولم يفهمها الآخر، فتميز أحدهما عن الآخر في ذلك المقام، وبكلمات أدق فقد تحصّل العلم لكليهما ولكن تحصّل الفهم لأحدهما ولم يتحصل للآخر، ولنقرأ ذلك من كتاب الله الكريم، قال تعالى:

- ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ۝٧٨ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ۝٧٩﴾ [الأنبياء: 78-79]

دقق النظر – أخي الكريم- بمفردات هاتين الآيتين الكريمتين، ألا تدل بشكل لا لبس فيه أن كلا من داوود وسليمان قد تحصلا لهما العلم "وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا"؟ ولكن هل تحصل الفهم لداوود كما تحصل لسليمان؟ الجواب: كلا. فبالرغم أن كلاً من داوود وسليمان قد علما بالأمر، إلا أنّ الابن "سليمان" فقط هو من تحصل له فهم ما حصل.

إن ما يهمنا من هذا المثال هنا هو القول بأنه لا يجب خلط هذه المفاهيم، لأن ذلك يبعدنا عن الدقة في التمييز، الأمر الذي نحن في أمسّ الحاجة إليه عندما نتعامل مع كلام رب العباد.

أما ما يخص بحثنا هذا، فإننا ننشد الدقة في التمييز بين ما هو علم وما هو شيء آخر، فقد قلنا أن كلامنا السابق كله يخص "علم الله" ولا يجب تعديته إلى أكثر من ذلك. فلا يجب خلط العلم بالمعرفة مثلاً أو المعرفة بالعلم. لأننا سنحاول أن نبين لاحقاً (بحول الله وتوفيقه) أن هناك فرقاً كبيراً جداً بين العلم من جهة والمعرفة من جهة أخرى، وسنفتري الظن حينها أن الله الذي يعلم لا يعرف. وهذا افتراء خطير جداً سيكون له تبعات جمة على العقيدة التي نحملها في صدورنا. فنرجو من القارئ الكريم التريث قليلاً قبل اقتباس هذه العبارة وإخراجها من سياقها ليخرج على الناس ليحدثهم عن ما أحدث رشيد الجراح في عقيدة آباءهم وأجدادهم (وقد فعلوا، وهم في ظننا قوم لا يفقهون حديثا، فالله أسأل أن يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ).

أما ما نحن بصدده أولاً هو التفصيل فيما يخص المقصود بالعلم كما ورد في كلام الله، لا كما نظنه أو نستخدمه نحن على ألسنتنا التي غالباً ما حرَفت الكلام من بعد مواضعه.

⇐ أولاً، لقد بيّنا سابقاً أن مفردة العلم تعني وصول الخبر بالنقل، فيكون النقل من أهم خصائص العلم، فأنت عندما تقول العبارة التالية "علمت أن فلاناً مسافر"، فهي تعني - بكل تأكيد- أن الخبر قد وصلك منقولاً، أليس كذلك؟ ولتوضيح الصورة أكثر فإننا نقدم المثال التالي: فعندما نقول أن فلاناً عالم فيزياء فهذا يعني أن أخبار الفيزياء "أو العلم بالفيزياء" قد نقلت له بطريقة ما، فليس شرطاً أن تقابل اينشتاين حتى تسمى عالماً بفيزياء اينشتاين لتتلقى العلم منه شفاهة، وكم لدينا علماء بالمذهب الحنفي أو المالكي جاءوا بعد مئات السنين من موت أصحاب تلك المذاهب، لنلخص إلى نتيجة مفادها أن العلم يتحقق بالنقل، أو أن النقل يكفي لحصول العلم.

⇐ ثانياً، ليس من شروط العلم بالشيء أن يكون صحيحاً، فقد يتبين لك بعد فترة أن خبر سفر فلان ليس صحيحاً، ولكنّ ذلك لا يخرجه من دائرة العلم، فحصول العلم لا يعني صدق أو كذب الخبر، فأنت إن كنت عالم رياضيات فلا شك أن أخبار الرياضيات قد وصلتك، ولكن ذلك لا يعني بأي شكل من الأشكال أن كل تلك الأخبار صحيحة على إطلاقها، فليس كل ما في الرياضيات أو الطب أو الهندسة صحيحاً، ولكننا لا نتردد أن ننعت المتخصصين بتلك العلوم بصفة العلماء (وإن كنا مخطئين كما سنحاول تبيانه لاحقاً).

⇐ ثالثاً، إننا نزعم أن العلم بالشيء لا يعني حصول الفهم بالشيء، فليس شرطاً أن يكون من لديه العلم بالشيء فاهماً فيه، فقد يتحصل لك العلم ولكنك قد لا تعدو أكثر من مردد لذلك العلم، غير فاهم ما فيه، وقد قدمنا مثال داوود وسليمان سابقا، ولكننا نرغب بتقديم مشاهدة بسيطة من حياتنا المعاصرة للتدليل على صحة ما نزعم:

فهل ينكر أحد أن لدينا الكثير من علماء الرياضيات؟ ولكن هل وجدنا أحداً منهم يقف صارخاً بالناس بالقول أنه لا يجوز طرح المعادلة الرياضية في كتاب الله حول عمر نوح "فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا" بتلك السذاجة لأن المعادلة تحتوي على متغيرين (سنة وعام)؟ أليست تلك من أبسط مبادئ الحساب؟ ربما لا أحد من علماء الرياضيات يجهل مثل هذه المعلومة، ولكن هل فعلاً فهموها كما يجب حتى يطبقوها كما يجب؟ (للتفصيل في هذا الموضوع انظر مقالتنا تحت عنوان: كم لبث نوح في قومه؟)

لذا فإننا عندما نتكلم عن علم الله لا يجب تعدية ذلك والخروج باستنتاج خاطئ وكأننا نقول أن الله –حاشاه جل وعلا- غافل عن ما يحصل؟ فهذا خطأ في فهم ما نزعم لأننا ببساطة نتحدث عن حصول العلم فقط، وأنا أدرك صعوبة تلقي مثل هذه المعلومة لأن الناس جبلوا على التفكير بالمفردات كما ألفوها هم، فهم يظنوا أن العلم بالشيء هو ما يفهموه هم من مفردة العلم، وأظن أن علمائنا الأجلاء هم سبب هذا الخلط لأنهم غاصوا في مواضيع كبيرة وعظيمة ولكنهم استخدموا الألفاظ بطريقة فضفاضة بعيدة عن الدقة والتمييز.

⇐ رابعاً، إن بحثنا هنا لا يتعدى اطاره ما يمكن استخلاصه من ما ورد في القرآن الكريم بشكل متكرر وهو: البحث الإلهي عن العلم بما سيفعل الإنسان كما في قوله تعالى:

- ﴿... وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ... ١٤٣﴾ [البقرة: 143]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٩٤﴾ [المائدة: 94]
- ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ٣١﴾ [محمد: 31]

ولو حاولنا ربط الأمور مع بعضها، سنجد أن مثل هذا الطرح ربما يحل إشكالية كبيرة في الفكر الديني سنتعرض لها حالاً، ألا وهي: مهمة الملائكة الموكلون بالخلق جميعهم، والسؤال الرئيس الذي نطرحه هنا هو: لماذا يعهد الله إلى الملائكة للقيام بتسجيل أعمال العباد ما دام أن علم ذلك عنده؟

ربما لا أحد من أهل الفكر الديني يعارض الاعتقاد بأن أعمال العباد تسجل عليهم، ويقوم بهذا التسجيل ملائكة موكلون بالمهمة:

- ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ٢١ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٣﴾ [يونس: 21-23]
- ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ٨٠﴾ [الزخرف: 80]
- ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ١٩﴾ [الزخرف: 19]

ونحن نطرح هنا سؤالاً بسيطاً جداً: لماذا يقوم أولئك الملائكة بتسجيل أعمال العباد؟ ألا يعلم الله ما يعملون وما يفعلون وحتى ما يسرّون وما يعلنون، سرهم ونجواهم، الخ؟ فما فائدة ذلك التسجيل إذا كان الله عالماً بكل ما يفعلون وما سيفعلون، عالماً بسرهم ونجواهم؟ وما فائدة وجود أولئك الملائكة في الأساس؟

ربما يكون الرد الجاهز لدى علمائنا الأجلاء بالقول بأن ذلك التسجيل يكون لإثبات الحجة على الناس، ولكننا نرد عليهم بالسؤال الأكثر تعقيدا: ألا يكفي بأن يكون الله شهيداً عليهم؟ ألم يقل الله في كتابه الكريم؟

- ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ١٦٦﴾ [النساء: 166]

نعم الملائكة يشهدون، ولكن ألا تبين الآية الكريمة نفسها أن شهادة الله كافية؟ ثم لنتصور الموقف على النحو التالي:

يبعث الله الناس من قبورهم ليحاسبهم على ما عملوا، فيعرضون على ربهم، ولا يكون بينهم وبين خالقهم ترجمان، فهل نتصور أن من بعث من قبره وعرض على ربه سينكر أو ربما يكذّب شهادة خالقه في ذلك الموقف الرهيب؟ لا أخال أن الموقف يحتمل مثل هذا السيناريو، ثم لنوافقكم الرأي للحظة أن ذلك لإقامة الحجة عليهم وحتى يقتنعوا بما عملوا في حياتهم الدنيا، ولكن ألم يقل الله تعالى في كتابه الكريم أن أعضاء أجسادهم – كألسنتهم وأيديهم وأرجلهم وجلودهم- ستشهد عليهم؟

- ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: 24]
- ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فصلت: 21]
- ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [فصلت: 22]

فهل من شـــهد عليه لســـانه ويده ورجله وجلده وســـمعه وبصرـــه يحتاج إلى برهان أكبر من ذلك؟ فهل سيستطيع أن يجادل في صدق شهادة ربه أولاً وشهادة أعضاء جسمه بعد ذلك؟

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: إننا نستنتج أن تسجيل أعمال العباد ليست لإقامة الحجة على الناس وذلك لسبب بسيط وهو: لأن هناك طرق أكثر قوة ستستخدم لإقامة الحجة على الناس تتلخص بشهادة الله نفسه أولاً وقبل كل شيء، وشهادة (نطق) أعضاء جسم الإنسان، أي شهادة الإنسان على نفسه. ولا أخال أنّ أحداً سيجادل في مثل هذا القول خصوصاً إذا ما قرأ قوله تعالى:

- ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام: 19]

وإنني على يقين أن من سيكذّب شهادة ربه وشهادة أعضاء جسمه (إن حصل فعلاً) لن يتواني عن تكذيب ما كتب في صحيفته، أليس كذلك؟

فما الغاية من التسجيل إذاً؟ وما الغاية من وجود ملائكة يكتبون أعمال العباد؟

- ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يونس: 21]
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: 16-18]

هنا يجب أن أفتري القول أن رقيب عتيد لا تعني أن هناك رسولين يكتبان أعمال كل واحد من العباد، بل هو رسول واحد فقط، فعبارة "رقيب عتيد" تدل على الشيء نفسه، لأنهما صفتان لنفس الكينونة، ولو كانا كينونتين لجاء النص على نحو (رقيب و عتيد)، فنحن عندما نقول أن الله سميع عليم أو بصير خبير أو فتاح عليم لا يعني أننا نتحدث عن كينونتين، وإنما هي كينونة واحدة لها صفتان مثل (رقيب

عتيد)، لذا نحن نحتاج أن نفهم معنى رقيب وعتيد لنفهم كيفية عمل تلك الكينونة التي ظن علماؤنا أنهما الرسولان اللذان يكتبان أعمال العباد والتي نظن أنها رسول واحد يكتب أعمال كل عبد.

ولنكرر السؤال نفسه: فما فائدة أن يكتب رسل الله أعمال العباد؟ وما فائدة أن يكون على الإنسان رقيب عتيد عن اليمين وعن الشمال قعيد؟

إننا نظن أن الجواب موجود في الآيات نفسها، وهو حصول العلم "وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ"، فكيف يتم علم الله "بما توسوس به نفس الإنسان؟

رأينا: إنه النقل: فالملائكة ينقلون أخبار العباد إلى ربهم فبذلك يتحصل العلم الرباني بما يعمل الناس؟ ولا نشك قيد أنمله أن من واجبات أولئك الملائكة هي نقل الأخبار إلى ربهم؟ وهذا بالضبط ما نعني بالعلم؟ إنه ذلك الفرع من المعرفة الذي يتحصل بالنقل.

ولكن قد يرد البعض علينا بالقول: ما فائدة نقل أخبار العباد إلى ربهم ما دام أنه سيشهد عليهم بنفسه يوم القيامة وما دام أن أعضاء جسمهم ستشهد عليهم؟

فنرد بالقول أن شهادة الله عليهم وشهادة أعضاء جسمهم عليهم ستكون في يوم القيامة، أليس كذلك؟ فكيف سيعلم الله بحالهم قبل ذلك الوقت؟ فهل سيترك الله "الحبل على الغارب" (كما نقول في المثل- ولله المثل الأعلى) حتى يأتي ذلك اليوم ليشهدوا على أنفسهم؟ كلا، فلابد أن يعلم الله بحالهم قبل أن يشهدوا هم على أنفسهم في يوم الحساب.

ونحن لا نشك كذلك أن هؤلاء الملائكة مؤتمنون، فهم ينقلون الخبر صادقاً، وتحفظ تلك الصحف بأيدي ملائكة موكلون بتلك المهمة:

- ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾ [عبس: 13-16]

لذا فإن العلم الرباني بأخبار العباد ينقله ملائكة مؤتمنون فيكون علما صادقا، ويحفظ بأيد ملائكة مؤتمنون فلا يتبدل ولا يتغير حتى يستلم كل إنسان كتابه بيمينه أو من وراء ظهره.

ولكن ذلك لا ينفي وجود فروع وطرق أخرى لتحصيل المعلومة، ونستعرض حالاً إلى ضرورة التفريق بين قولنا "أن يعلم" و "أن يعرف":

باب المعرفة

إننا لا شك أن رسل الله قد آتاهم الله علما، أليس كذلك؟ فنبي الله يوسف عليه السلام- مثلاً- كان يعلم تأويل الأحاديث، فذاك العلم قد تحصل له من ربه، أي نقل له العلم بتأويل الأحاديث، والملفت للانتباه أننا لا نجد أحداً من النبيين والرسل وحتى من أولياء الله الصالحين ينسب العلم لنفسه، وإنما يقر بحقيقة صارخة ألا وهي أن ذلك العلم قد تلقاه من مصدر آخر، وهو المصدر الرباني:

- ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧﴾ [يوسف: 37]

ولكننا نجد المكابرين المتجبرين يفعلوا مثل ذلك، أي نسبة العلم لأنفسهم:

- ﴿۞إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨﴾ [القصص: 76-78]

ولكن هل الوسـيلة الوحيدة "للحصـول على المعلومة" هي "العلم"؟ وبكلمات أخرى، هل كان يوسـف – مثلاً- يعتمد فقط على "العلم"، أي ما ينقل له من المصدر الرباني؟

الجواب: كلا، فـ بالإضافة إلى أن يوسف كان يعلم، فقد كان يعرف؟ فما هي المعرفة؟ أي كيف كان يعرف؟ لنتدبر ما جاء في كتاب الله عن قصة نبي الله يوسف مع إخوته، قال تعالى:

- ﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٥٨﴾ [يوسف: 58]

فيوسف إذاً قد عرف إخوته، ولكننا لا نقول أنه قد علمهم، فلا أظن أن أحداً نقل خبرهم إلى يوسف ليتم له العلم بأنهم إخوته، لهذا لم يقل الله في كتابه الكريم أن يوسف قد علم إخوته، ولكنه عرفهم، ولو دققنا النظر في الآيات القرآنية التي تتحدث عن المعرفة لوجدنا أنها غير نقلية، وغالباً ما تكون مباشرة أو استنتاجية بوجود دليل ملموس عليها، ولنتدبر الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩﴾ [البقرة: 89]
- ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾ [البقرة: 146]
- ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨﴾ [البقرة: 198]

- ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾ [البقرة: 273]
- ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة: 83]
- ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنعام: 20]
- ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأعراف: 46]
- ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأعراف:48]
- ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يوسف: 58]
- ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يوسف:62]
- ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [النحل: 83]
- ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ [الحج: 72]
- ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المؤمنون: 69]
- ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النمل: 93]
- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ [الأحزاب: 59]
- ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾ [محمد: 6]
- ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ [محمد: 30]
- ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ [الرحمن: 41]
- ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾ [التحريم: 3]
- ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ [المطففين: 24]

- ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ٤٥﴾ [يونس: 45]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: 13]

والمتدبر لهذه السياقات القرآنية يجد أن المعرفة تتم بوجود قرينة، فأنت تعرف الفقراء الذين لا يسألون الناس بسيماهم:

- ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢٧٣﴾ [البقرة: 273]

والنبي يستطيع أن يعرف المنافقين بسيماهم (إن أراهم الله إياهم) أو في لحن القول:

- ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٠﴾ [محمد: 30]

وكذلك يعرف أهل الأعراف :

- ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ٤٦﴾ [الأعراف: 46]
- ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٨﴾ [الأعراف:48]

وإخوة يوسف لا شك سيعرفون بضاعتهم عندما يفتحوا متاعهم:

﴿وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٦٢﴾ [يوسف:62]

وإن تم تغطية الأمر تنتفي المعرفة (أو على الأقل تقل فرص المعرفة)، لذا فعندما تدني المرأة من جلبابها تقل فرصة معرفتها:

- ي﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩﴾ [الأحزاب: 59]

ولحصول المعرفة لابد من التواصل، فلو لم يكن يوسف يعرف إخوته من قبل لما استطاع أن يعرفهم يوم أن قابلهم بعد زمن طويل (إلا بوجود دليل آخر)، وكلما ازداد ذلك التواصل ازدادت المعرفة، لذا فإن الله خلق الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: 13]

وهذا ما سيكون من أمرهم يوم أن يبعثهم الله:

- ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ٤٥﴾ [يونس: 45]

فكلما ازداد التواصل بينهم كلما ازدادت المعرفة، وكلما قل التواصل تناقصت المعرفة، لذا فإن أهل الكتاب يعرفون كتابهم كما يعرفون أبناءهم:

- ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾ [البقرة: 146]

لذا لم يستغربوا ما جاء به محمد من الحق لأنهم أصلاً يعرفون ذلك من ذي قبل:

- ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣﴾ [المائدة: 83]

واستحق الذي كفر منهم بما جاء به النبي اللعنة لأنهم ببساطه قد كفروا بما كان يعرفون:

- ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩﴾ [البقرة: 89]

وعرفات هو المكان الذي يتعارف به الناس عندما يأتونه من كل حدب وصوب:

- ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨﴾ [البقرة: 198]

نستنج من المناقشة السابقة أن المعرفة تستند إلى دليل:

- ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٠﴾ [محمد: 30]

والمعرفة تحتاج إلى تواصل

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: 13]

والمعرفة تحتاج إلى جهد:

- ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٠﴾ [محمد: 30]

فحتى يعرف النبي هؤلاء الناس كان لابد أن يراقب قولهم ويتدبره، ومن ثم يخلص إلى نتيجة مفادها أن في قولهم شيء يختلف عن قول الآخرين. ومراد القول أن المعلومة لو نقلت للنبي نقلاً من خالقه لأصبح ذلك علماً وليس معرفة.

هل الله يعرف؟

رأينا: لما كانت المعرفة تحتاج إلى دليل وإلى بذل جهد للوصول إليها، وهي بلا شك تزيد وتنقص بمقدار الجهد والتواصل، الخ. فإننا نزعم الظن بأن ربنا الذي نعرفه لا يعرف ولكنه يعلم.

الدليل

إن الملفت للانتباه أننا لا نجد في كتاب الله اقتران المعرفة بلفظ الجلالة إطلاقاً، فلا نجد آية واحدة تدلنا على أن الله يعرف أمور العباد، وهذا دليل صارخ يثبت لنا أن أخبار العباد تنقل إلى خالقهم نقلاً، فيكون ذلك علماً وليس معرفة. ونحن نظن أن علم الله لا يحتاج أن يستند إلى دليل، ولا يحتاج الله للعلم بالشيء أن يتواصل معه، والله لا يبذل جهداً في الحصول على علمه، لذا فهو علم وليس معرفة. وحتى يرى القارئ الكريم وجاهة ما نزعم فإننا ندعوه إلى إمعان التفكير بـ تبديل الألفاظ الذي حصل في الآية الكريمة التالية، ليرى كيف تبدّل اللفظ عند الحديث عن علم الله بعد أن كان سياق الآية كلها قد بدأ الحديث عن معرفة البشر (ومنهم الرسول نفسه):

- ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٠﴾ [محمد: 30]

ففي حين أن الحديث كان من باب المعرفة عندما كان يخص النبي صلى الله عليه وسلم في بداية الآية "وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ" تبدّل اللفظ مباشرة للحديث عن علم الله في نهاية الآية نفسها " وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ"، فلو كان علم الله معرفة لكانت تكملة الآية – في ظننا- على نحو "والله يعرف أعمالكم"، أليس كذلك؟ وتتأكد مثل هذه المعاني في قوله تعالى:

- ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٨﴾ [النحل: 28]

ولو دققنا النظر في مفردات الآية التالية، لربما وجدنا الدليل على الفرق بين أن يتحصــل الشــخص على المعلومة بطريقة العلم (علم) أو بطريقة المعرفة (عرف):

- ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: 49]

فخبر الغيب لا يصل الإنسان إلا بالنقل، فهو إذاً من باب العلم، ولو كانت المعرفة وحدها توصل إلى تلك الأخبار لما كان البشر بحاجة إلى رسل وإلى ملائكة لينقلوا لهم أخبار الغيب، فمهما بلغ الإنسان من المعرفة (بالتدبر والدليل) لا يستطيع أن يصل إلى تلك الأخبار، فيبقى بحاجة إلى العلم بها، لذا لا بد من نقلها، لتصله على شكل علم وليس على شكل معرفة. ونحن إذ لا ننكر فائدة التفكر والتدبر (أي المعرفة) لكننا نبقى نسأل الله العلم (فالله أسأل أن يعلمني من لدنه علماً)

ولنتدبر كيف يطلب كبير إخوة يوسف منهم أن يعبروا عن خبر سرقة أخيهم عندما يرجعوا إلى أبيهم، فلقد قال كبيرهم:

- ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يوسف: 81]

نعم، إن أبسط ما يمكن أن نخلص إليه من قول كبيرهم هو أن يبلّغوا أبيهم أنهم قد علموا (ولكنهم لم يعرفوا) أن أخاهم قد سرق، فهم إذاً لم يشاهدوا أخاهم يسرق، ولم يكن لديهم حجة أو دليلاً على سرقة أخيهم، ولهذا فإنهم يبعثوا برسالة واضحة إلى أبيهم مفادها أن خبر سرقة أخينا قد نقل لنا نقلاً (أي علما)، لذا فإننا لا نشهد إلا بما علمنا "وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا"، ويكأن كبيرهم هذا يريد أن يقول لأبيه رسالة مفادها أننا لا نتهم أخانا بالسرقة، ولم نشهد سرقته بأم أعيننا، ونحن لا نملك إلا أن نشهد فقط بما نقل إلينا من خبر سرقة أخينا.

لذا جاء تكملة القول في الآية التالية على النحو التالي:

- ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يوسف: 82]

فهم إذاً يؤكدوا أنهم صادقون ليس أن أخاهم قد سرق، ولكننا صادقون فقط بشهادتنا، أي أننا تلقينا خبر سرقة أخينا كما تتلقاه أنت الآن. فصدقنا يخص شهادتنا هذه، وما حصل معنا.

لذا جاء رد النبي الواثق بربه على النحو التالي:

- ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ

إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف:83-87]

ولو قارنا شـــهادتهم هذه بشـــهادتهم يوم أن رجعوا إلى أبيهم عشـــاءً يبكون وقد تركوا يوســـف في غيابت الجب، لوجدنا الفرق واضحا جلياً:

- ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [يوسف: 17]

فهم أنفسهم يشككوا بصدق شهادتهم، بوضعهم اللوم على أبيهم أنه لن يصدقهم "وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ"، فهم إذاً ليســوا صــادقين. أما يوم أن أدلوا بشــهادتهم بخصــوص أخيهم الذي أتهم بجرم السرقة فقد جاء كلامهم بصيغة الواثق مما يقول:

- ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يوسف: 82]

لذا جاء رد أبيهم هذه المرة يخلو من عبارة كانت واضحة في رده على شهادتهم بخصوص يوسف، ولنقارن الرد في الحالتين:

رد نبي الله يعقوب على شهادة أولادة بموت يوسف:

- ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف: 18]

رد نبي الله يعقوب على شهادة أولادة بسرقة أخيهم:

- ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ [يوسف: 83]

إنها تدل بما لا يدع مجالاً للشك أن يعقوب النبي قد فهم أن شهادة أبناءه كانت شهادة كاذبة بحق يوسف لذا قال: وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ، بينما كان مصدّقاً لشهادتهم بخصوص أخيهم الذي أتهم بالسرقة، لذا خلا كلامه من هذه العبارة.

وللحديث بقية